الشخصية الوطن في رواية (ارتطام لم يسمع له دوي) بثينة العيسى

د. دلال بنت بندر المالكي[1]

(قدم للنشر في ٠٤/ ٠٢/ ١٤٤١هـ؛ وقبل للنشر في ٠٦/ ٠٧/ ١٤٤١هـ)

المستخلص: تهدف هذه الدراسة إلىٰ استقراء الشخصية الأنثوية في رواية (ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ) لبثينة العيسىٰ؛ باعتبارها مُجسِّدة للوطن. وتزاوج هذه الدراسة في سبيل الوصول إلىٰ وصف هذه الشخصية (الوطن) وتحليلها بين المنهجين التحليلي والسيميائي؛ حيث ترصد المفاهيم والآليات، وتستنبط منها ما يلائم الدراسة، وتقايسها علىٰ تلك الأنماط المختارة في الدراسة، مع الاعتماد علىٰ تحليل أبعاد الشخصية، والكشف عن وظائفها الفنية. وعليه فقد قُسم البحث إلىٰ عدة محاور أساسية، وهي تعالج المرتكزات التالية: معالجة مفهوم الشخصية والوطن والانتماء، ورسم تشكيل الشخصية، وطرق عرضها، وأبعاد تشكيلها؛ الجسدية والنفسية والاجتماعية والثقافية، ومِن ثَمَّ ربط علاقة تلك الأجزاء المنفصلة بالشخصية الكل للشخصية الإنسانية، وإسقاط المناسب منها علىٰ الوطن، ومِن ثَم الكشف عن صورة الوطن وأبعاده الجغرافية والسياسية والاقتصادية؛ من خلال الشخصية الإنسانية النسائية التي تجسّده.

الكلمات المفتاحية: الشخصية، الوطن، بثينة العيسىٰ، الكويت، الانتماء.

***

(١) أستاذ مشارك بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

البريد الإلكتروني: Dbm1399@hotmail.com

Homeland Personality In the novel (An impact whose sound was not heard) by Buthayna Al-Eissa

Dr. Dalal Bander Al-malki

(Received 03/10/2019; accepted 01/03/2020)

Abstract: This study aims to explore the feminine character in the novel "Artaṭāmun Lam Yasmaʿ Lahū Dawī" (A Collision Unheard) by Buthayna Al-Eissa, considering it as an embodiment of the homeland. The study employs both analytical and semiotic approaches to describe and analyze this character (homeland), observing concepts and mechanisms. It derives suitable elements from them and compares them to the selected patterns in the study, relying on the analysis of the character's dimensions and revealing its artistic functions.

The research is divided into several main axes, addressing the following focal points:

1- Addressing the concepts of personality, homeland, and belonging.

2- Outlining the formation of the character and methods of presentation.

3- Exploring the dimensions of character formation, including physical, psychological, social, and cultural aspects.

4- Establishing a connection between these separate parts of the overall human character and projecting the relevant aspects onto the homeland.

5- Revealing the image of the homeland and its geographical, political, and economic dimensions through the feminine human character embodied by Buthayna Al-Eissa.

Keywords: Personality, Homeland, Buthayna Al-Eissa, Kuwait, Belonging.

❊ ❊ ❊

المقدمة

تشكل الشخصية في روايات (بثينة العيسىٰ)، عنصرًا فاعلاً في تحقيق خطاب سردي خاص؛ وذلك بما تحمله تلك الشخصيات من سمات وتشكلات تحمل تأويلات متعددة، وستسعىٰ هذه الدراسة إلىٰ اكتشافها وتأمل مكنوناتها؛ محاولة تحقيق قراءة جديدة لإنتاج العيسىٰ الروائي.

وترتبط الشخصيات لدىٰ العيسىٰ بالقضايا الوطنية والاجتماعية؛ بحيث تمثل بنية الشخصية مسرحًا يخلق التوتر والصراع الدرامي الذي يكشف عن الطبيعة المكونة للقضايا وتأثرها وتأثيرها في بعضها البعض، كما يساهم تشابُك الأحداث في تجلّي أبعاد القضايا، والتعاطي معها.

وتتجلىٰ **أهمية هذا الموضوع** من جهة أنه يدرس نصوصًا روائية شكلت الشخصية فيها أهمية كبيرة؛ من حيث اشتغال الروائية علىٰ تشييدها وشحنها بحمولات دلالية تمتد إلىٰ علاقتها بالوطن من خلال الشخصية (الوطن) التي توظف التجربة الإنسانية لمعالجة قضايا الوطن وصورته في حقل السرد الروائي.

ومن المهم الإشارة إلىٰ أن الرواية الخاضعة للدراسة؛ وهي: (ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ) رواية، دار المدىٰ سوريا، ٢٠٠٤م.

تتبنىٰ قضايا وطنية متقاربة تتعلق بالحقوق الوطنية، وإحساس الانتماء الذي لا يتعارض مع هذه الحقوق منحًا أو منعًا؛ سواء أكان ظهورها - أي القضايا - بشكل مباشر أم غير مباشر، وتتجسد هذه القضايا الوطنية من خلال بطلة الرواية (فرح).

وتسعىٰ الدراسة إلىٰ تحقيق الأهداف التالية:

١ - الكشف عن تجليات أبعاد الشخصية الروائية وتحديد أكثرها وضوحًا.

٢ - إبراز علاقة الشخصية الروائية بالوطن.

٣- تحديد الأبعاد المجسدة للوطن من خلال الشخصية الروائية.

٤ - الكشف عن دور الفضاء المكاني في تشكيل صورة الوطن.

وذلك من خلال الإجابة علىٰ التساؤلات التالية:

١ - كيف تم تشكيل الشخصية في الرواية؟

٢ - ما أبعاد تشكل الشخصية في الرواية؟

٣- ما الطرق التي استخدمتها الرواية في عرض الشخصية؟

٤ -كيف تجلت الأبعاد الشخصية الأنثوية مع الأبعاد المكونة للوطن؟

وعليه فقد قسمت الدراسة إلىٰ ثلاثة محاور أساسية، وهي تعالج المرتكزات التالية:

أولًا: الشخصية الروائية: المفهوم والضوابط، وهو تمهيد يضبط الحدود اللغوية لـ«الشخصية»، و«الوطن» في المعاجم المتخصصة، ويشكل المفهوم من خلال تحديداته النقدية المتناولة، للوقوف علىٰ المناسب منها للدراسة، وصولًا لاستنطاق آليات الاشتغال علىٰ المصطلح في الدراسة، ويساهم هذا المدخل في فتح مغاليق البحث، وتدعيم الجانب النظري للدراسة.

ثانيًا: تشكيل الشخصية: وهو مبحث يعنىٰ بطرق عرض الشخصية، وأبعاد تشكيلها، الجسدية والنفسية والاجتماعية والثقافية، ومن ثم ربط علاقة تلك الأجزاء المنفصلة بالشخصية الكل للشخصية الإنسانية وإسقاط المناسب منها علىٰ الوطن.

ثالثًا: الشخصية / الوطن: ويكشف عن صورة الوطن وأبعاده الجغرافية والسياسية والاقتصادية من خلال الشخصية الإنسانية النسائية التي تجسده.

***

أولاً:
الشخصية الروائية: المفهوم والضوابط

حين تتجه الدراسة إلىٰ تعريف الشخصية؛ فإن الاهتمام ينصبّ أولاً علىٰ التعريف اللغوي، وهو ما أجمعت عليه المعاجم اللغوية، وجميعها تتفق علىٰ أن لفظ الشخصية يعود إلىٰ الجذر اللغوي (ش.خ.ص)، وأن دلالة هذه الجذر تتّصل بالإنسان أو أحد مكوناته أو صفته وهيئته؛ إذ يذكر (لسان العرب) أن «الشخص: شخص الإنسان وغيره، مذكر، والجمع أشخاص وشخاص وشخوص، والشخص سواد الإنسان وغيره تراه من بعيد، تقول: ثلاثة أشخاص. وكل شيء رأيت جسمه، فقد رأيت شخصه. والشخص: كل جسم له ارتفاع وظهور، والمراد إثبات الذات فاستعير لها لفظ الشخص»(١).

وفي (تاج العروس) فقط اشترط علىٰ التسمية بالشخص أن يكون جسمًا مؤلفًا له شخوص وارتفاع، وشخصت الكلمة من الفم: ارتفعت نحو الحنك الأعلىٰ، ومن المجاز قول الشخيص أي المتجهم، وتشخيص الشيء تعيينه(٢).

ولم يرد هذا اللفظ في القرآن الكريم، وإنما الوارد (شاخصة) في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٩٧]، وهو لفظ مشتق من اللفظ ذاته (ش.خ.ص)؛ لكنه يدل علىٰ رفع البصر عند الموت؛ فشخص البصر سما وطمح(٣).

وتكشف التعريفات اللغوية اشتراكها في دلالة لفظ شخص؛ إذ هي كلمة تُقَال للإنسان

(١) لسان العرب، جمال الدين محمد ابن منظور (٧/ ٤٥).

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد الزبيدي (١٨/ ٨).

(٣) لسان العرب، جمال الدين محمد ابن منظور (٧/ ٤٥).

الذي يراد تعيينه، وتكون له هيئة خاصة واضحة تدل عليه، ويرتبط الجذر اللغوي (شخص) بالإنسان، وبما يتعلق به، ولا تخرج دلالة الهيئة إلىٰ المخلوقات الأخرىٰ؛ فهي مفردة تدل علىٰ إثبات الذات؛ ما يجعل هذه المفردة بدلالتها اللفظية تصبُّ في محور الخصوصية التي تجمع بين الذات وتكوينها الخاص الممتد إلىٰ الأرض والوطن وانتمائها إليه.

والمرتكز الثاني لدلالة مصطلح (الشخصية) يتعلق برحيل هذا المصطلح إلىٰ فضاءات النص الأدبي والنقدي؛ لأن حدود المفهوم يتم تناولها وفقًا لمعيارين؛ هما:

١ - المعاجم اللغوية.

٢ - معاجم المصطلحات النقدية ودراساتها.

ومن ثَم تحديد المستخدم من عديد الدلالات في الدراسة.

ويحتاج مصطلح (الشخصية) إلىٰ تأصيل وتحديد في مجال الحقل الذي يُستخدم فيه؛ نظرًا لتعدد استعمالاته في حقول المعرفة الإنسانية، لا سيما في المجالات النفسية، وهي وإن كانت قريبة التناول؛ لأن الشخصية الروائية تحتاج إلىٰ استقصاء نفسي؛ إلا أنَّ الاختلافات تبقىٰ ظاهرةً بين شخصية إنسانية، وأخرىٰ روائية.

وبالوقوف علىٰ المعاجم والدراسات النقدية تتجلىٰ تلك الفروق؛ إذ يذكر (معجم السرديات) اشتراطًا لوجود الشخصية في النص السردي؛ إذ إن: «توافر الشخصية في النص السردي رهين تضافر أدوار ثلاثة؛ هي: الدور الفاعلي، وفيه يُنظر في انتماء الشخصية إلىٰ أحد الفواعل الستة، والدور التمثيلي وفيه يرىٰ من ينهض بهذا الدور الفاعلي أو ذاك بقطع النظر عن الشكل الإنساني أو عن عدد الممثلين الفعلي، والدور الغرضي وفيه يحدد الدور الاجتماعي الثقافي النفسي للشخصية.

وبهذا تكون الشخصية نظامًا ينشئه النص تدريجيًّا، لكنها لا تعدم في بداية ظهورها هوية عامة. فهي في البداية شكل أو بنية عامة. وكلما أضيف إليها خصائص أضحت معقدة غنية مرغبة

من دون أن تفقد هويتها الأصلية»[1]، وهذا يعني أن الشخصية ينبغي أن تتمثل في العمل الروائي بأبعادها المختلفة النفسية والاجتماعية والثقافية، التي بدورها تؤثر في دفع عجلة الأحداث وتسييرها إلىٰ وجهتها الديناميكية، وهذه الشخصية لا تتجلىٰ في العمل الروائي دفعة واحدة، بل هي رهينة الأحداث والتطورات التي تكشف في كلّ مرحلة عن بُعْد من أبعاد الشخصية.

ويذكر معجم (المصطلحات الأدبية المعاصرة) أن استعمال الشخصية في الأدب الروائي بدأ يختفي وحلّ محله الفاعل أو الممثل؛ لدقة استخدامها السينمائي، كما أن الشخصية الروائية هي فكرة من الأفكار الحوارية، التي تدخل في تعارض دائم مع الشخصيات الرئيسية أو الثانوية[2].

ويعرفها (معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب) بأنها: «أحد الأفراد الخياليين أو الواقعيين الذين تدور حولهم أحداث القصة أو المسرحية»[3]، ويُعدّد المعجم أنواعًا منها، وهي: الشخصية الخلقية، والشخصية الرئيسية، والشخصية النمطية.

ويحددها معجم (المصطلحات الأدبية) بأنها: «مجمل السمات والملامح التي تُشكّل طبيعة شخص أو كائن حي، ومن أنواعها: الشخصية التالية، والشخصية الجاهزة القياسية، والشخصية الراكدة المتحجرة، والشخصية الرئيسية، والشخصية المسطحة، والشخصية الممتلئة المكتملة»[4].

ويحددها (قاموس السرديات) بأنها: «كائن له سمات إنسانية، ومنخرط في أفعال إنسانية. ممثل له صفات إنسانية، ويمكن أن تكون الشخصيات رئيسية أو ثانوية طبقًا لدرجة بروزها النصي، ديناميكية حركية عندما يطرأ عليها التبدل أو استاتيكية ساكنة عندما لا تكون قابلة للتغير،

(١) معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون (ص٢٧١).

(٢) انظر: معجم المصطلحات الأبية المعاصرة، سعيد علوش (ص١٢٥).

(٣) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكمال المهندس (ص٢٠٨، ٢٠٩).

(٤) معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي (ص٢١٠).

متَّسقة عندما لا تتناقض صفاتها مع أفعالها، أو غير متسقة، مسطحة، بسيطة... أو معقدة...»[1]، ومما يميز هذا القاموس أنه يفصل بين مصطلح الفاعل والشخصية؛ فالشخصية تتناول جانب الفكر والأخلاق في حين يمثل الفاعل جانب الحدث.

وثمة تعريفات أكثر وتنظيرات أوسع فيما يخص مصطلح الشخصية لدىٰ (رولان بارت)، و(تودوروف)، و(غريماس)، و(فيليب هامون)، إلا أننا آثرنا البحث عن المصطلح في المعاجم النقدية، وليس البحث عن دلالتها في نظرية بعينها؛ إذ كل ناقد من هؤلاء يعرّف الشخصية من منظوره النقدي الذي يتسق مع نظريته.

ومن بين جميع التصنيفات يتناسب تصنيف (فيليب هامون) في تقسيمه الشخصيات إلىٰ فئة مرجعية، وفئة واصلة، وفئة استذكارية، مع الشخصية الوطن محل الدراسة؛ إذ يتناسب توصيف (فرح) الشخصية (الوطن) في الدراسة مع فئة الشخصيات الواصلة؛ وهي: «شخصيات يوظفها المؤلف لتكون علامة حضور له في ذهن القارئ، ومن خلالها ينقل ما يجول في فكره علىٰ لسانها»[2].

وهكذا تكشف التعريفات السابقة عن ماهية الشخصية، وعن أنواعها وتصنيفاتها، التي تتجلىٰ في الرواية بحسب أنواعها وتفاعلها ومستوياتها وأبعادها، فلكل نوع روائي شخصية تناسبه.

وتفترض هذه الدراسة استحضار الوطن من خلال شخصية البطلة في الرواية؛ بحيث تتمثل أبعاد الوطن، وتتداخل مع صفات الشخصية النسائية في تشكيل نسيج متكامل من خلال آليات الرواية واستراتيجياتها ومكوناتها البنائية.

أما الوطن فيعرف في لسان العرب بأنه: «المنزل تقيم به، وهو موطن الإنسان ومحله،

(١) قاموس السرديات، جيرالد برنس، ترجمة: السيد إمام (ص٣٠).

(٢) سيميولوجيا الشخصيات الروائية، فيليب هامون. ترجمة: سعيد بن كراد (ص١٢٠).

والجمع أوطان، ومواطن مكة مواقفها، ووطن بالمكان وأوطن أقام، وأوطنه اتخذه وطنًا»[1].

وتستقصي هذه الدراسة سمات الشخصية الوطن؛ باعتبار الجنس والجنسية، من خلال الأبعاد المكونة للشخصية، وأيضًا من خلال الأداء الشفهي المترجم للرغبات المكنونة؛ حيث يساهم الحوار بالتضافر مع لغة الشخصية، وجسدها وجنسها وجنسيتها في نقل السمات المستهدفة والمحققة للانتماء من عدمه؛ إذ الانتماء والوطنية شعور لا يَمُتّ للحقوق الموهوبة أو المنزوعة بصلة.

* * *

(١) لسان العرب، جمال الدين محمد ابن منظور (١٣/ ٤٥١).

ثانيًا:
تشكيل الشخصية الروائية

يؤكد هذا المحور علىٰ جانبين؛ وهما:

١ – طرق تقديم الشخصية والأساليب المتَّبعة فيها.

٢ – تجسيد الأبعاد المكوّنة للشخصية في جوانبها المتعددة.

ويجلي هذا المحور تضافر تلك الجوانب جميعها في الكشف عن ملامح الشخصية الروائية التي تحمل صفات الوطن؛ حيث تتحول الشخصية الروائية المرأة؛ بما تمتلكه من صفات إسقاطية إلىٰ معادل موضوعي للوطن؛ إذ تمر بما يمر به الوطن في محدداته الزمانية والمكانية؛ فتصبح الشخصية الروائية جسرًا يصل بين المواطن مسلوب الحقوق (البدون) وأحلامه وانكساراته في محاولته لامتلاكها.

١ – طرق تقديم الشخصية الروائية:

تتجلىٰ الشخصية الروائية في النص عبر طرق عدة؛ وتختلف نظرًا لاختلاف نوع الرواية وطريقة الروائي السردية؛ وتبعًا لهذه الاعتبارات تتحدد الطرق التي تقدم بها الشخصيات الروائية.

ويعد عنصرا التسمية والفردنة من أهم الطرق في تقديم الشخصية الروائية[1]، وهو تقديم للشخصيات بأسمائهم العَلَمية التي تُعرَف بها في الرواية، ومنحها تميُّزًا فيما بينها، يتناول بعد ذلك الروائي وبطريقته السردية التعريف الجسدي والنفسي والثقافي بالشخصية بعد التعريف بهويتها الذاتية؛ ويسمىٰ هذا النوع من التقديم للشخصية تقديمًا مباشرًا يخبر عن الشخصية من

(١) انظر: سيميولوجية الشخصيات السردية (رواية الشراع والعاصفة لحنا مينة نموذجًا)، سعيد بنكراد (ص١٣٩).

خلال الوصف العام لها؛ الذي يُعرِّف بها تعريفًا تامًّا من جميع الجوانب، وقد يتخذ الروائي طريقة أخرىٰ يكون فيه التقديم تقديمًا غير مباشر يتكشف من خلال الحوار أو حركة الأحداث ودورانها؛ وفي هذا النوع لا تتبلور ملامح الشخصية إلا في آخر الرواية؛ إذ في كل مرحلة تظهر سمة من سمات الشخصية.

وتقدم الشخصية الروائية من خلال التقنيات الروائية التالية؛ وهي:

أ- دور الوصف في تقديم الشخصية:

يمثل الوصف في الكتابة الروائية مرحلة تعبيرية عن تجربة معقدة، يتداخل مع مقومات أخرىٰ للنص؛ ليؤدي معنًىٰ ما[1]، ويمكن للروائي أن يُقدّم أبعاد الشخصية المختلفة بطريق الوصف المتدرج في التكشف، والذي يمنحها بُعدًا مشوّقًا، كما أنه يجعل الأحداث تسير بطريقة حيوية تخرج عن وطأة الحكم النهائي بعد ظهور جميع سياقات الشخصية.

ويوحي مصطلح (الوصف) بأن الدلالة المقصودة هي الوصف الجسدي فقط؛ غير أن من يقرأ رواية العيسىٰ يجد أن الوصف فيها يتأكد في وصف الحالات النفسية وصفًا تصويرًا دقيقًا، ولا تميل إلىٰ وصف الجانب الجسدي، وهي تستخدم الوصف في مقاطع كثيرة من الرواية لتصوير حدة الحالة النفسية، ولتقريب صورتها للقارئ، ولا تتناول الأبعاد الجسدية إلا لخدمة الوصف النفسي، تقول: «أعينهم تغني: سمراء جائعة وبردانة الفتاة التي جاءت من العالم الثالث! سخرية الجوع طافية علىٰ سحنتها، ربيبة الذهب الأسود»[2]، فيؤكد الوصف في هذا المقطع علىٰ حالة عدم الثقة وجلد الذات، وهي إحدىٰ سمات شخصية (فرح)، في تعاطيها مع المواقف المختلفة، وتتخذ العيسىٰ هذا الجانب الوصفي في تجسيد حالات الخوف والقلق والترقب؛ حيث تحول الحالة النفسية المحسوسة إلىٰ حالة ملموسة يمكن وصفها ورؤيتها.

---

(١) أبحاث في النص الروائي العربي، سامي سويدان (ص١٣٤).

(٢) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص١٦).

وتساهم تقنية الوصف في إبراز الأزمة النفسية التي تمر بها الشخصية، وما أفضت إليه من الحرمان والعزلة، فحالتا فرح وضاري تمثلان الضد من حيث الأبعاد النفسية، ويظهر هذا الاختلاف النفسي من خلال التجسيد المادّي له، سواء في واقع الشخصية أو متخيلها، مثل وصف فرح لحالة العزلة والانغلاق التي تعيشها: «أنتزع نفسي من هواجسي، أجيل بصري في الجوار، بعيدًا عن الأشجار والغيوم وكل ما يثير الرعب، سرعان ما تآلف هؤلاء الطلبة؛ إلا معي، ليس لأنهم غير منفتحين كفاية، ولكنني منغلقة كفاية، يتعاطون مع بعضهم بأريحية، يريدون أن يستفذوا متعتهم حتىٰ أقصاها في حين أنا - الحشرة التي نُتِفَ جناحاها - يطرحني الاكتئاب لمجرد أنني لا أستطيع أن أتربع فوق كرسي»[1]، هكذا يُشكّل الوصف النفسي الواقعي والمتخيل الشخصية، ويرسمها بوضوح، معتمدًا علىٰ الصور الخيالية التي من شأنها تجميل الصورة أو تقبيحها بحسب الحالة النفسية التي تصفها العيسىٰ وتريد نقلها.

وتتضافر عناصر السرد الروائي مساهمة في تكوين الشخصية الروائية المعنية (فرح)؛ حيث تحضر في واقعها الروائي بوصفها فتاة منغلقة علىٰ ذاتها ليس لها عالم خارج حدود المدرسة والجامعة والكتب، هدفها الوطني هو الذي يصنع منها متسابقة في علم الأحياء؛ عبر مسابقة علمية عالمية تقام في السويد تكتشف التناقضات التي تعيشها في شخصيتها والتناقضات التي يقدمها الوطن لأبنائه، إضافة إلىٰ صراعها الداخلي مع الأعراف الاجتماعية، ويتعارض هذا الصراع الداخلي مع واقعها المأمول.

ب- دور الحوار في تقديم الشخصية:

«وهو أسلوب من أساليب القصّ مثل الوصف والسرد.. ويعد الحوار موطنًا من أهم مواطن تعدُّد الأصوات في النص السردي»[2]، وللحوار وظائف متعددة؛ منها: وصف الواقع،

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص١٧).

(٢) معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون (ص١٥٨، ١٥٩).

والإخبار عنه، ورسم ملامح الشخصيات، مع الإسهام في بناء الحكاية والحدث.

ويحمل الحوار جزءًا كبيرًا من شخصية المتحدث، فنوع اللغة المستخدَمة، وحرارتها ودلالتها المباشرة أو الرمزية، تكشف عن أبعاد الشخصية وتجلّيها في وضوح. وتحتوي الرواية علىٰ نمطين من أنماط الحوار، وهما:

١- الحوار التعليمي: الذي يدور غالبًا بين (فرح) و(ضاري)؛ وذلك أن ضاري أوسع تجاربًا وأُفُقًا من (فرح)، التي كانت تتعلم منه مفاهيم الحياة.

٢- الحوار السجالي: وهو الذي يدور بين (فرح) و(ضاري) حول قضايا الوطن؛ فكلاهما يعرف الحقائق ويدركها، ولكن لكل منهما وجهة نظر يحاول إقناع الآخر بها؛ لكنَّ الاختلاف ظل قائمًا بين الجميع.

وثمة تصنيف آخر للحوار في الرواية، يمكن أن يُدْرَج تحت نوعين؛ هما:

١- الحوار الخارجي: ويندرج التصنيف السابق - التعليمي والحواري - ضمنه؛ لأنه تواصل بين شخصيات متعددة ومختلفة في جميع الأبعاد، تساهم في دفع حركة الأحداث.

٢- الحوار الداخلي: مع الذات أو الحوار الداخلي أو (المنولوج)، ويمكن أن يُدْرَج ضمن تيار الوعي أو الحديث الباطني للشخصيات، وجاء تعريفه في معجم السرديات بأنه: «ضرب من المونولوج الداخلي يظهر في النصوص والمقاطع السردية بضمير المخاطب، ويتميز بإقامة وضع تلفظي مشترك بين المتكلم والمخاطب دون أن يحدث تبادل كلام بينهما»[1]؛ لذلك تتَّحد لغة المخَاطَب والمخاطِب؛ لأنهما في الحقيقة شخصية متعددة الأصوات، ويُعد الحوار في هذا النوع أداةً لترتيب الأحداث والشخصيات.

ويُمثل الاقتباس التالي نمطًا من أنماط الحوار الداخلي الذي دار بين (فرح) وذاتها: «أبدو

(١) معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون (ص١٥٨).

بينهم كعشبة ضارة، الجميع - ربما - لا يراني إلا براميل نفط وبلادة!»[1].

وقد يتداخل الحوار الداخلي مع الحوار الخارجي علىٰ لسان (فرح) فيكشف هذا التداخل الحواري عن أبعاد شخصية (ضاري) الجسدية التي لم توضّحها الرواية من قبل؛ كما يكشف أيضًا عن التناقض بين الشكل الخارجي للجسد - وهو شكل قابل للتغيُّر سواء اللباس أو هيئة الشعر -، والهوية الكويتية الثابتة في اللهجة واللون والطباع: «أحدق فيك، بالشعر الممسد بالجل، مردودًا إلىٰ الخلف وكأنك أمررت عليه ألسنة من صمغ، بأساور الفضة المتدلية بغنج علىٰ صدرك، والوشم الصغير لمنجل أعلىٰ ذراعك، كل شيء فيك لا يشبه اللغة التي استخدمتها، ورغم ذلك.. كل شيء فيك يوقظ فيّ وطنًا أعرفه.

مباغتة بدوية مدوية، حضورك الأسمر الفاره، أتراجع إلىٰ الخلف خطوتين، أتابع تفاصيلك برعب، أكتشفك دونما خجل: سحنة بدوية معدلة، تلك السمرة التي لا يجيد استجلابها من الشمس إلا البدو، والشعر الذي وإن تلطخ بالجل لن يصعب عليك تمييز أنه لأخ العنود أم الجديلة...

تضحك من علائم الذهول علىٰ وجهي، أتمرغ في وجهك الملطخ بالغربة، تعاود إلقاء التحية، ويدك سمراء عالية، مثل صارية سفينة:

الله بالخير يبه!

هكذا بلهجة شعبية صرف، بهيئتك التي لا تشبه شيئًا، وتشبه كل شيء، خلاصة عصير يجمع الوطن والمنفىٰ، يخيل إليَّ أنك رجل مشطور من المنتصف بخط متقطع أحمر مشروع خارطة حداثية، بأبعاد تربو علىٰ الثلاث، وفضاءات تربو علىٰ الأزل والأزل، ياه.. من أنت؟

أبلع ريقي أسألك بصعوبة:

كويتي!

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص١٧).

أنا ضاري...»[1].

ولا يعطي الحوار الشخصيات فرصة للتعبير عن أنفسهم إلا في آخر الرواية؛ حيث المواجهة الصريحة بين (فرح) و(ضاري)؛ إذ يعطي الحوار كل شخصية فرصة للتعبير عن رؤيتها.

٢- أبعاد الشخصية الروائية:

وتمثل شخصية فرح الوطن؛ وللتعرف علىٰ هذه الشخصية نقف علىٰ الأبعاد المكونة لها، وهي:

أ- البعد الجسمي:

ويقصد به تحديد الجنس (ذكر أو أنثىٰ)، ومن ثَم الوصف الجسدي الذي تتميز به شخصية عن أخرىٰ في الطول والقصر والبدانة[2]، والرشاقة ولون البشرة والشعر والعمر والصفات التي قد تدرج ضمن العيوب الجسدية؛ لأن وصف هذا البعد يكشف جوانب متعددة من الشخصية؛ ولا تقف العيسىٰ عند هذا البعد كثيرًا؛ فلا تكشف الرواية عن ملامح الجسد للشخصية الوطن، لكنها تقف عند جانب جسدي مهم هو العمر؛ فـ(فرح) طالبة في الجامعة تدرس في قسم الأحياء، أتمت ثمانية عشر عامًا من عمرها، وقد يكون الوصف الجسدي الوحيد لفرح في حديثها عن نفسها حين دخلت القاعة، وهي تصف نظرات الحضور في القاعة لها: «أعينهم تغني: سمراء جائعة وبردانة الفتاة التي جاءت من العالم الثالث! سخرية الجوع طافية علىٰ سحنتها، ربيبة الذهب الأسود كالفقراء والمساكين والمؤلفة قلوبهم تأكل خبزًا وجبنة غداء متأخر بعد سفر شاق»[3]، وهو وصف لا يتجاوز وصف نمطي لامرأة عربية سمراء قادمة من بيئة بدوية يتبين ذلك في لون

(١) ارتطام لم يُسمع لها دوي، بثينة العيسىٰ (ص٢٠-٢٢).

(٢) النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال (ص٥٧٣).

(٣) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص١٦).

بشرتها وشعرها وشكل جسدها، وقد يلجأ الكاتب إلىٰ استخدام طرق أخرىٰ غير مباشرة لها دلالاتها الفنية الموحية في النص السردي؛ فاختيار أسماء بعينها قد يدلّ علىٰ مرحلة زمنية معينة أو طبقة اجتماعية[1]، ويحمل اسم (فرح) دلالة علىٰ المرحلة التي تنتمي لها؛ فهي شابة من جيل ما بعد الغزو، إضافة إلىٰ دلالة الاسم علىٰ أنها من بيئة حضرية تنتمي للمجتمع الكويتي.

وثمة مكون أساس آخر يُعدّ مؤثرًا في شخصية (فرح)؛ إنه الجنس الأنثوي الذي يجعل والدها وإخوتها يرفضون مشاركتها وحيدة في مسابقة خارج أرض الوطن؛ لولا وساطة جدتها وإقناعها لوالدها بالموافقة علىٰ المشاركة، في حين أن (ضاري) الشاب الوحيد في الرواية الذي يشبه فرح/ الوطن يقارب السادسة والعشرين من العمر، شاب أسمر اللون يحاول أن يتشبه في هيئته الخارجية بمواطني السويد الأصليين؛ لكنَّ ملامحه السمراء العربية، ولغته العربية الفصيحة تكشف عن أصوله العربية وتحديدًا الكويتية.

ب- البعد الاجتماعي:

ويتمثل في انتماء الشخصية «إلىٰ طبقة اجتماعية، وفي نوع العمل الذي يقوم به في المجتمع وثقافته ونشاطه، وكل ظروفه، التي يمكن أن يكون لها أثر في حياته، وكذلك دينه وجنسيته وهواياته»[2]؛ إذ إن الطبقة الاجتماعية ونوع الوظيفة التي يزاولها والظروف الاجتماعية المختلفة والمتباينة من حيث الاستقرار والاضطراب تؤثر سلبًا وإيجابًا في بناء الشخصية، وليس الالتفات إلىٰ هذا البُعد اهتمامًا بالمجتمع، وإنما اهتمام بأثر المجتمع علىٰ الشخصية.

لا تتناول رواية (ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ) البعد الاجتماعي والأسري لفرح؛ لكنها تعرج علىٰ بعض مكوناتها الاجتماعية؛ فهي فتاة قليلة السفر لم تخرج من بيئتها الكويت للسفر إلا مرة واحدة قبل ثلاث سنوات من هذه المسابقة، وقد ذهبت إلىٰ العمرة، ويستغل أستاذها هذا

(١) بنية الشخصية في أعمال مؤنس الرزاز الروائية، شرحبيل إبراهيم المحاسنة، الأردن (ص٢٧).

(٢) مدخل إلىٰ تحليل النص الأدبي، عبدالقادر أبو شريفة (ص١٣٥).

الجانب للسخرية منها: «يسألني بسخرية فاترة؟ هل سبق أن سافرت؟ يعرف بأنه تحليقي الأول خارج جغرافيا الوطن، هذا الشلل الذي انتابني وشاية عن البدايات في أتم تفتحها»[1].

ويكشف الخروج الوحيد إلىٰ العمرة عن جانبين في شخصية فرح الاجتماعية؛ فهي من بيئة متدينة محافظة، كما أنها فيما يبدو بيئة متوسطة الحال لا يمكنها السفر والخروج المتكرر لقضاء أوقات ممتعة، وخروجها الوحيد خارج نطاق الوطن لا يكون إلا للعبادة أو العلم والعمل، ويبدو لهذه الصفات الاجتماعية أثرها في صلابة رأي (فرح)، وصمودها أمام المغريات التي وجدتها في السويد؛ إذ كان هدفها المشاركة العلمية فقط.

ثمة مكون آخر يُعدّ مؤثرًا في شخصية (فرح) إنه الهوية: «- في السويد - أنت بحكم عروبتك عارٍ جدًّا وتحتاج إلىٰ أوهام تُدثّر عارك أو تدثّر عُريك؛ لا فرق عندما تصبح هويتك عورة في عالم يناقض كل بديهياتك»[2]؛ هذه الهوية العربية التي تتمثل في الشكل الخارجي تحديدًا، والذي يجعل من حولها يكتشف بيئتها، ومن ثَم يحكم عليها، والحقيقة أنها الوحيدة التي كانت تكترث لهذا، فيما كان جميع المشتركين يركزون علىٰ الجوانب العلمية والثقافية، فقط (فرح) كانت تتقوقع علىٰ نفسها نظرًا لأفكارها المنغلقة عن العالم.

وتتكون أسرة (فرح) من والدها ووالدتها وجدتها وإخوتها الذكور، ولا يرد ذكر هذه الأسرة إلا مرة واحدة: «ألم أقض تلك الليلة في طبع قبلات التوسل علىٰ رأس جدتي لكي تضغط علىٰ أبي ليوافق علىٰ حضوري؛ لفرط ما اشتهيت أن أنال شرف المشاركة في الأولمبياد العالمي للأحياء ممسكة بعلم الوطن؟ وكم مرة كان عليَّ أن أستعطف أمي كي تمنع إخوتي الذكور من عرقلة حلمي، وها أنا الآن أمامك، أنثىٰ محظوظة وحسب»[3]، ثمة جانب اجتماعي آخر يكشف

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص١٠).

(٢) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص١٠).

(٣) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٢٩).

عن أهمية الجدة في بناء شخصيات الأبناء خاصة البنات في المجتمعات المحافظة؛ إذ تلازم البنت جدتها أكثر من والدتها؛ ما يخلق نوعًا من الصداقة والثقة، ومن جانب آخر فإن التزام الآباء بواجب البر بآبائهم يمنح الفتيات جوازًا للمرور إلىٰ المحظورات الاجتماعية من خلال جداتهن؛ كما حدث مع (فرح).

ويختفي المكون الاجتماعي الأسري في شخصية (ضاري)؛ إذ لا يرد ما يشي بعلاقة خاصة مميزة بينه وبين أسرته، غير تلك التي تشير إلىٰ أن والديه يقيمان معه في السويد، لكن يتجلىٰ في شخصيته البعد الاجتماعي الثقافي المزدوج بين الرجل العربي البدوي والآخر الغربي: «أحدق فيك بالشعر الممسد بالجل مردودًا إلىٰ الخلف، وكأنك أمررت عليه ألسنة من صمغ، بأساور الفضة المتدلية بغنج علىٰ صدرك والوشم الصغير لمنجل أعلىٰ ذراعك، كل شيء فيك لا يشبه اللغة التي تستخدمها، ورغم ذلك كل شيء فيك يوقظ فيَّ وطنًا أعرفه.. مباغتة بدوية مدوية، حضورك الأسمر الفاره، أتراجع إلىٰ الخلف خطوتين، أتابع تفاصيلك برعب أكتشفك دونما خجل، سحنة بدوية معدلة»[1]، ويظهر الانتماء الشكلي الخارجي للسويد في شخصية (ضاري) بوصفه نتيجة حتمية لحياة قضاها هنا – في السويد – استغرقت أحد عشر عامًا من عمره، ومع هذا فإن انتماءه لم يتجاوز الشكل الخارجي فيما ظلت الكويت انتماءه الداخلي الذي يتحفز للظهور حالما يجد من يثيرها داخله، إضافة إلىٰ ظهورها الدائم بينه وبين ذاته في خلواته التي اكتشفتها من خلال المرسم الذي شاهدته، مشكلته الوحيدة أنه ينتمي لهذه السويد رسميًّا من خلال حمله الجنسية فيما تظل هويته الكويتية هي الأصيلة وإن لم يحمل جنسيتها يومًا؛ لذلك حينما رآها عادت له الكويت لغة وهوية: «أتمرغ في وجهك الملطخ بالغربة، تعاود إلقاء التحية، ويدك سمراء عالية، مثل صارية سفينة: الله بالخير يبه!

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٢٠).

هكذا بلهجة شعبية صرف، بهيئتك التي لا تشبه شيئًا، وتشبه كل شيء، خلاصة عصير يجمع الوطن والمنفىٰ، يخيل إليّ أنك رجل مشطور من المنتصف بخط متقطع أحمر مشروع خارطة حداثية، بأبعاد تربو علىٰ الثلاث، وفضاءات تربو علىٰ الأزل والأزل، ياه.. من أنت؟

أبلع ريقي أسألك بصعوبة: كويتي!

... أنا ضاري... باسمًا تهز أكتافك بلا اكتراث: ناديني داري إن أعجبك الاسم، حتىٰ كفرك بالأسماء كان أول درس تلقيته علىٰ يديك»[1]، هكذا يعيش (ضاري) في وسط اجتماعي بعيدًا عن وطنه لكنه بين والديه، يتملك الجرأة علىٰ التواصل والتعبير عن شعوره بالحب لوطنه، واضطهاده له وأمثاله من فئة البدون، وبرغم كل ذلك لم يستطع الانسلاخ من هويته الكويتية وانتمائه لها.

إن تعدد المواقف بين (ضاري) و(فرح) وانكشاف نقاط التشابه والاختلاف بينهما يولد صراعًا عميقًا داخل (فرح) الأنثىٰ التي تدافع عن فرح الوطن، وتتكاثف عدة عوامل اجتماعية ووطنية داخلها لتحسم الصراع لصالح الوطن، حتىٰ وإن كانت الرغبة الحقيقية داخلها تتشبث بـ(ضاري) وتتوسل في البقاء علىٰ تواصل معه حتىٰ بعد العودة للوطن.

ج- البعد النفسي والثقافي:

ويعد البعد النفسي: «ثمرة للبعدين السابقين - الجسدي والاجتماعي - في الاستعداد والسلوك، والرغبات والآمال، والعزيمة والفكر، وكفاية الشخصية بالنسبة لهدفها. ويتبع ذلك المزاج: من انفعال، وهدوء، ومن انطواء أو انبساط، وما وراءهما من عقد نفسية محتملة»[2].

وهذا البعد أبرز الأبعاد تجليًا في الشخصية محل الدراسة، ويعد الذكاء ملمحًا من الملامح النفسية المؤثرة في الشخصيات ويمتلك (ضاري) شخصية ذكية يستطيع من خلالها أن يقنع (فرح) بكثير من الأمور التي ما كانت لتقتنع بها من غيره، خاصة أنه يمتلك لغة كامنة وأخرىٰ

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٢٠-٢٢).

(٢) النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال (ص٥٧٣).

ظاهرة يتلاعب بها بحسب الموقف، وليس المقصود بالتلاعب بغرض الإغواء، وإنما بغرض جذبها إليه لتصبح وطنه في الغربة.

و فيما يخص المستوىٰ العلمي فلا تكشف الرواية إلا عن تخصص (فرح) في الأحياء الذي تغيره إلىٰ مسار آخر بعد عودتها إلىٰ الكويت، وهي تمثل أبناء وطنها بتفوقها في التخصص غير أن مستواها العلمي ينكشف في مقارنتها نفسها بالطلبة علىٰ مستوىٰ العالم الذين يشاركونها «أتراي أنا من تستحق أن تتشدق بقوانين الأحياء من بين هؤلاء، أنا الآتية من مكان لا يتكاثر فيه إلا الجدب؟ وهذا اليوناني إلىٰ جانبي يختبئ خلف نظارتيه كجرذ ويكتب بشراهة، يقال بأن ما ترجمه العرب منذ عهد المأمون وحتىٰ اليوم يعادل ما تترجمه اليونان في سنة واحدة»[1].

وليس ثمة ما يدل ثقافيًا علىٰ شخصية (ضاري) سوىٰ إتقانه اللغة الإنجليزية؛ لذلك هو مترجم مرافق لفرح ويتقن الرسم ويحفظ الشعر مما يؤكد شخصية الفنان التي اكتشفتها فيه (فرح) بعد أن رافقته إلىٰ بيته.

د- دلالة الأسماء:

ويدخل في الجانب النفسي علاقة الاسم بالشخصية؛ إذ يحمل الاسم دلالات سيميائية تكشف عن بعض جوانب الشخصية، وتسهم في تعميق وجودها، وتختلف هذه الأسماء في الكتابة الروائية فمن الكتاب من يختار تعيين الشخصية بمهنة معينة، أو بصلة قرابة أو بنسبة إلىٰ مكان أو بشيء يميزها عن غيرها، حتىٰ وإن كان ذلك الاسم من الأعلام المتعارف عليها إلا أن اختياره يحمل رمزًا محددًا مقصودًا.

ويحيل اسم فرح علىٰ حالة شعورية من السعادة التي تعزىٰ لنجاحات تحققها الشخصية بلا شك، إلا أن المواقف تكشف عن اختفاء هذا الشعور من حياة (فرح)، فليس ثمة تطابق بين

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٧٣).

الحالة وصاحبة الاسم مما يعكس منطقة من مناطق التناقض في شخصيتها.

ويبدو أن انعدام حالة الفرح من حياة فرح تعود إلىٰ الشعور بالانهزامية والدونية؛ نظرًا لإخفاقها في المشاركة العلمية والتي تعزوها فرح لهويتها العربية والتي تكشف لها مشاركتها في المسابقة الدولية مدىٰ تأخرها علميًا عن بقية الحضارات الغربية.

ويظهر إحساس (فرح) بدونية اسمها وانهزاميته منذ المرة الأولىٰ التي نطق فيها (ضاري) الاسم وحوله إلىٰ (فأرة) الحيوان الجبان: «تقرأ حروف اسمي

Farah المكتوب علىٰ بطاقة معلقة علىٰ قميص

لست فأره! أنا فرح..

ضحكت، الأسئلة تتدفق من عيني، تجيب قبل أن أطلقها: اتصلت بي السفارة لإبلاغي بحضورك.

ومن تكون؟ أنا ضاري!

لأنك لا تملك بطاقة تعريف أخرىٰ لا شيء سوىٰ تلكم الأعين المشبعة بالحنين....طلبوا أن أكون مرشدك لكنهم لم يخبروني بأنك فتاة!»[1]، وتكمن المفارقة في امتلاكهما لغة واحدة لكنها أصبحت حاجزًا بينهما علىٰ أرض الغربة التي جعلتها تظن ضاري ينتمي لها في كل شيء.

وسيتولد من هذا النطق إحساسها الدائم بالنقص: «أركض إلىٰ الحمام وأتقيأ يخرج القيء دموعًا وطعامًا لا أذكر أنني أكلته، يا فأرة البيولوجيا فسري لي هذا القيء إن استطعت»[2]، وهنا توظف فرح الفأر حقل التجارب البيولوجية في سياق الجهل؛ فهو وإن وقع فريشة التجارب إلا انه فعلًا يجهل أسبابها ونتائجها وفوائدها.

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٢٤).

(٢) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٧٦).

ويظل (ضاري) منبهًا لها في كل مرة بحقيقتها الجبانة: «ولا أرىٰ إلا هلام ضوء وأمشاج ظهرت، ولا أسمع إلا صوتك؟ يا فأرة هل أنت في الداخل»[1]، كما تُشعرها زميلتها الصينية بعجزها كلما نادتها بهذا الاسم؛ ما يجعلها أحيانًا تتقبل علىٰ مضض هذا الاسم: «ما زلت أتساءل كيف سأناديها، وكيف ستستطيع مناداتي، مادامت كلتانا عاجزة عن نطق اسم الأخرىٰ بشكل يرضي نرجسيتها.. لمدة ثلاث دقائق كانت تحاول أن تلقنني طريقة نطق اسمها..... إنها لا ترضىٰ أبدًا! عليك أن تميل بشفتك بالزاوية الصحيحة لكي تأتي بالواو مكسورة بشكل يرضيها، لم تكن هي أفضل حالا مني ولكنني كنت قد بدأت أردد مثلك (أسخف ما نحلمه يا سيدي الأسماء) فهززت رأسي ضاحكة: يس فارا!»[2]، ثم أنها تتقبل هذا الاسم في أحيان أخرىٰ من قبيل السخرية من ذاتها: «فارا فارا ماذا قلت؟ قلت بأنني سأفوز بالمركز الأول بالتأكيد»[3].

ويستمر شعورها بالدونية والنقص في وصفها لاسمها في ختام المشاركة العلمية حين ينادىٰ علىٰ اسمها لحصولها علىٰ المركز الأخير: «أصواتهم ضخمة متورمة في المايكرفون بأعجمية حطمت مفاصلي..فارا ناسر»[4]، وثمة مفارقة أخرىٰ في الجمع بين الفأر الحيوان الضعيف والنسر – الحيوان الشجاع – وذلك حين يحول اسم والدها من ناصر إلىٰ ناسر.

هكذا يترك الاسم أثره النفسي والسلوكي العكسي علىٰ شخصية (فرح)، فتحول الاسم إلىٰ لغة أخرىٰ مع بقاء الهوية العربية يعطيه دلالة الحيوان (الفأر) بما يتصف به من الجبن والخوف، وفي مفارقة عجيبة يحمل ضاري اسمًا له دلالته المتوحشة الشجاعة الجريئة، بينما لو نطقته بلفظه الأجنبي فإنه سيحمل لفظ (داري) المكان الذي يفتقد إليه؛ وهو الدار في الوطن.

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٧٦).

(٢) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٣٢).

(٣) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص١٠٢).

(٤) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص١٤٨).

وتكشف دلالة الأسماء الذكورية عن القوة المجتمعية الضمنية فـ(ضاري) و(ناصر) أسماء تتضمن القوة، وحتىٰ حين تقلب حروف الأسماء الذكورية فإنها تحمل معان إيجابية سواء في اسم (ناصر) الذي يصبح ناسر، أو (ضاري) حين يدعىٰ داري، أو كما تقول فرح: « أبعثر حروف اسمك تميمة شغف»[1]، فحين تقلبه علىٰ أحد وجوهه فسيصبح راضي، فيما يحمل اسم (فرح) الاسم المؤنث الوحيد بخفته دلالة الضعف والخفة.

هكذا يضع الاسم دلالاته علىٰ الشخصية واصفًا أفعالها أو كاشفًا عن تناقضاتها، انطلاقًا مما يحمله الاسم من دلالات مباشرة أو عكسية.

ويشار هنا إلىٰ أن هذه الأبعاد المكونة للشخصية لا تظهر منفصلة عن بعضها البعض فكل بعد منهما يدعم معنىٰ الآخر وجميعها تؤكد علىٰ الجانب النفسي، وهو البعد الأهم من أبعاد الشخصية، وهي جميعًا ترد علىٰ لسان (فرح) فيما يتولىٰ ضاري التحليل المتعلق بالهوية والوطن، مما يبين الفرق بين الشخصيتين من حيث العمق والسطحية.

ويكشف هذا الجدول عن جمع الوصف بين الأبعاد الشخصية ودعم أحدهما للآخر في الكشف عن الذات:

البعد الموصوف	محتوىٰ الوصف	ص
النفسي والجسدي	أنت وحدك توغل في التيه، العالم من حولك يتحدث كل اللغات إلا لغتك، وأنت بجلدك الأسمر ناشز عن اللوحة	١٠
النفسي والجسدي	طفلة مثلي، وحيدة وجبانة، محملة بمهام من الوزن الثقيل، بلغة كسيحة وجبين يتفصد عرقًا	١١
الاجتماعي والجسدي	سمراء جائعة وبردانة تلك الفتاة التي جاءت من العالم الثالث! سخرية الجوع طافية علىٰ سحنتها، ربيبة الذهب الأسود.	١٦

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٧٥).

البعد الموصوف	محتوى الوصف	ص
الاجتماعي والجسدي	مباغتة بدوية مدوية، حضورك الأسمر الفاره...سحنة بدوية معدلة، تلك السمرة التي لايجيد استجلابها من الشمس إلا البدو.	٥٤
النفسي والجسدي	أسير خلفك خافتة مثل شمعة	٦٩
العلمي والثقافي	أنا لست غبية يا ضاري، لقد كنت الأولىٰ في المدرسة طوال عمري.. لست غبية، ولا أقل من غيري، ولا من الصينية...كل ما أريده هو فرصة عادلة كالآخرين، كل ما أريده هو تدريب كفؤ	٧١
الاجتماعي	كيف يمكن لبدوي أن يعيش حياة تسودها الخضرة والترتيب والترف، كيف يمكن أن تتحمل السير في الشوارع دون أن تبصق مثلا أو تلفظ علكا أو تدخن غير مكترث بشارات ممنوع التدخين؟	٨١

وتضم الرواية شخصيات أخرىٰ لم يقف عليها البحث؛ لأن الرواية لم تقف عندها وكان عبورها عليها سريعًا، وهي:

١- الأستاذ المرافق لـ(فرح)، وهو يكشف من خلال تصرفاته الشاذة معها عن تناقضات المجتمع العربي.

٢- الزميلة الصينية، وهي تكشف عن الاختلاف الثقافي والعلمي والفارق الشاسع بين المجتمعين.

***

ثالثًا:
الشخصية: الوطن

ثمة سؤال يتبادر إلىٰ الذهن: لماذا اختارت العيسىٰ المرأة وطنًا، ولم تختر شخصية ذكورية تجسّد الوطن؟

في البدء لا بد من الإشارة إلىٰ أن اختلاف رمزية المرأة في الكتابة الروائية بين الرجل والمرأة، يستدعي اختلاف دلالات المرأة الوطن في كتابة المرأة عنها في كتابة الرجل؛ وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: إذا كانت: «صورة المرأة أكثر رفاهة وحساسية وأشد وضوحًا في تعبيرها عن الواقع من صورة الرجل.. فالمرأة قادرة علىٰ أن تستقطب بحساسيتها المتأنية واتزانها العاطفي مثل مجتمعها وتقاليده بجميع عناصرها استقطابًا يبلغ حد الثبات والتكرار»[1]، فإنها ستكون ذات ملامسة أقوىٰ وستفرض قوتها الرمزية وتكتنز شحنة دلالية أعمق حين تكون كاتبة أيضًا، وذلك مما يبلور دورها بصورة أكثر وضوحًا.

ووفقًا لهذا التدفق الأنثوي في الرواية؛ فإن حضورها يتجسّد في مستويين؛ هما:

الأول: مستوىٰ ذاتي تمثل فيه المرأة المنتمية للوطن وطنًا خاصًّا للرجل في الرواية محل الدراسة؛ إذ يرىٰ (ضاري) في (فرح) ونتيجة لشعوره بالغربة وطنًا معادلاً للكويت التي غادرها فتصبح: «المرأة هي أرضه ووطنه، ولا يرىٰ شيئًا خالدًا سواها، ولا مكانًا أكثر أمانًا منها»[2]، فيحاول بكل ما أوتي من جاذبية أسرها كي تبقىٰ معه في الغربة ضاربًا بكل الأعراف الاجتماعية عرض الحائط.

الثاني: مستوىٰ موضوعي تمثل فيه الوطن الرمز بكل أبعاده الجغرافية والسياسية والتاريخية والاقتصادية.

---

(١) الهامش والصدىٰ – قراءة في تجربة محمد مفلاح الروائية – الجزائر، عبدالحفيظ بن جلولي (ص٥٠).

(٢) منابع الشعرية عن الشاعر إبراهيم عباس ياسين، مجموعة باختين (ص٢٨).

ويصور هذا المبحث شخصية المرأة المجسّدة للوطن، بما تحمله من قضايا، من خلال استقراء الرواية محل الدراسة، وبما تحمله من تشابه بين الشخصية والوطن، وتحديد جوانب التشابه بينهما، كما ظهر من خلال تصوير الشخصية لنفسها، أو من خلال رؤية الشخصية الأخرىٰ في الرواية لها.

وتمثل شخصية فرح الشخصية النسائية الاجتماعية التي تحمل المنحىٰ الفكري والوطني، وهي الشخصية الوطنية التي تمثل المرأة الكويتية، بل هي بهذه المحددات التكوينية تمثل الوطن الكويت.

وسيتناول الأبعاد التالية من الوطن:

١ – البعد التاريخي.

٢ – البعد الجغرافي.

٣– البعد الاقتصادي.

٤ – البعد السياسي.

ونبدأ بمعالجة هذه الأبعاد:

١ – البعد التاريخي:

لا يقصد بالبعد التاريخي في إطار هذه الرواية أن تصنف رواية تاريخية؛ لكن المقصود أن يبرز الحدث التاريخي بوصفه أحد الركائز التي تحقق البناء الروائي، وتكاد تخلو هذه الرواية من البعد التاريخي العميق في سيرة الوطن، الذي يمكن أن يظهر عبر شخصية تاريخية تحمل إشارات إلىٰ حقبة زمنية معينة أو حدث تاريخي له حمولاته الدلالية. وثمة سؤال يطرح هنا عن سبب غياب البعد التاريخي للوطن برغم العاطفة الوطنية القوية التي تحملها فرح الشخصية الوطن في الرواية؟

ويمكن أن تكون الإجابة في عدة جوانب؛ منها:

١ – إن التداخل بين العمل الروائي والتاريخ يتطلب التحويل والتفكيك والتركيب في

أحداث عميقة تتفكك فيها عناصر التاريخ، وتتداخل مع عناصر الرواية دون استقلال ذاتي[1]؛ وهذا يتطلب حدثًا ديناميكيًّا أعمق من حدث الرواية محل الدراسة.

٢- حداثة عمر (فرح) الشخصية الرئيسة في الرواية؛ مما يجعلها تتعاطىٰ مع أقرب حدث تاريخي مرت به الكويت، وهو حدث الغزو الذي لم تعاصره بالوعي السياسي بقدر معاصرتها لأحداث الحرب المخيفة علىٰ المستوىٰ الشعبي؛ الأمر الذي يجعل المعالجة معقَّدة بالنسبة لها، خاصة وقد تكشفت رؤيتها السطحية العاطفية للوطن من خلال حواراتها مع ضاري.

٣- إن التاريخ يحتمي بما هو واقعي وحقيقي، بينما تدور أحداث الرواية حول جدلية خلافية عن الانتماء للوطن بين العطاء والسلب.

لا تتطرق رواية (ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ) إلىٰ تاريخ الكويت بأحداثه أو شخصياته؛ إذ لا تتكئ الرواية علىٰ حقائق تاريخية تندمج وحالة الشخصيات الروائية؛ غير أن لمحات يسيرة في ملامح الشخصية (فرح) يمكن أن تستحضر حالة تاريخية للكويت الوطن أو ما يمكن تسميته (الكويت الشابة).

وتتمثل أول الأبعاد التاريخية في الرواية في الشهر الذي تدور فيه الأحداث: «كان يومًا صيفيًّا من أيام آب[2]، لا يشبه الأيام الصيفية التي أعرفها...»[3]، وبرغم أن هذا الاقتباس يتجه بعد ذلك إلىٰ الطقس الجغرافي المختلف؛ إلا أن المعنىٰ التاريخي الذي يومئ له هذا التاريخ يشير إلىٰ حقبة الغزو التي مرت بها الكويت، وهو الشهر الذي يمثل حضورًا مكثفًا في الذهن الخليجي عامة، وهو الثاني من أغسطس؛ وكما أن هذا التاريخ مثَّل مرحلة تحوُّل في تاريخ دولة الكويت؛

(١) دلالات العلاقة الروائية، فيصل دراج (ص٩٦).

(٢) شهر أغسطس يقابل شهر آب في التسمية الغربية، وفي ٢ من هذا الشهر من عام ١٩٩٠م شن الجيش العراقي هجومه علىٰ الكويت.

(٣) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٩).

فإنه سيمثل مرحلة تحول أخرىٰ في شخصية فرح؛ ولا يأتي هذا التاريخ صدفة في مفتتح الرواية؛ يل هو استراتيجية ترسم خفايا الشخصية، وتفعل الدور التاريخي في سيرة المرأة/ الوطن، وكأن حضور هذا التاريخ يدعو إلىٰ استحضار تحول جوهري في مسار الشخصية كما حدث للوطن.

ويتسبب هذا الغزو في انقطاع الكويت عن الحضور الدولي بشكلها الفاعل؛ حيث يتسبّب الغزو في خسائر جسيمة ظلت تحاول ردمها مدة من الزمن؛ ما يجعل حضور الوطن الكويت في المحافل الدولية وأبنائها حضورًا شكليًّا؛ ويمثل هذا صدمة لفرح التي ظنّت حضور وطنها قويًّا؛ لكنه في الحقيقة يشبهها تمامًا هي التي يمثل خروجها هذا الخروج الثاني من الوطن بعد خروجها الأول قبل ثلاث سنوات للعمرة؛ وينكشف أمامها الإنجاز السابق للطلاب الذين سبقوها بالمشاركة فلم يحسنوا التمثيل: «لم ينجح أي طالب من طلابنا من قبل»[1]، هذا الفشل لا يقارن حتىٰ بتاريخ العرب وانتظامها ضمن سلالته التي تفاخر بإنجازاتهم.

وتتماهىٰ الشخصية المرأة مع الوطن في تاريخهما المبهم؛ إذ لا يمتد الجيل الجديد الذي تمثله (فرح) بأواصر تاريخية عميقة مع الوطن بقدر شعورها بالاشتياق إليه وهي بعيدة عنه، فيما يمتلك (ضاري) إحساسًا أعمق بالوطن بالرغم من ابتعاده الجغرافي وانتمائه الملغىٰ والمجرد من الهوية؛ وهو «البدون» الذي اضطرته ظروف الحياة لاختيار السويد وطنًا بديلاً للحياة.

وتتمثل المرحلة التاريخية للشخصيات الروائية في الشخصيتين المؤثرتين؛ وهما (ضاري) وعمره ستة وعشرون عامًا يعيش في السويد منذ إحدىٰ عشرة سنة[2]، و(فرح) التي تصغره بما يقارب الست سنوات، التي قضت عامين استعدادًا لتمثيل الكويت في هذه المسابقة، وهما جميعًا بعيدان عن الموروث الثقافي والتاريخي للوطن؛ ذلك الذي يجعل (فرح) تفتقد صوتها في ترديد

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص١٢).

(٢) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٣٠).

النشيد الوطني: «لا أعرف من أين سآتي بصوت يليق (بكويتي) الصغيرة، من أين لي بصوت النهام ينشد الـ«يا مال» فارعة القامة»[1]، وهي إلىٰ جانب جهلها بالموروث الثقافي التاريخي للكويت تجهل الجانب العلمي والجذور التاريخية للعلم الذي جاءت تنافس طلبة العالم عليه، وهذا يظهر من خلال جهلها بـ(لينيه) أحد أبرز أعلام الأحياء؛ إذ تظل في سؤال مستمر لـ(ضاري) عن ذلك الممثل البارع الذي يجسّد شخصية (لينيه)، ويعرف بتاريخ السويد من خلال شخصيته العلمية، هذا التعريف التاريخي يُفضي إلىٰ المجد الذي اكتسبته السويد تاريخيًّا وعلميًّا بحصول تسع وعشرين عالمًا منها علىٰ جائزة نوبل في حين حصل عليها العرب مرة واحدة فقط، وحتىٰ حصول أحمد زويل عليها لم يكن رصيدًا عربيًّا؛ لأنه بجنسية أمريكية.

وتحضر السويد تاريخيًّا حضورًا طاغيًا فيما تبحث (فرح) عن الكويت وتصطدم بالجواب: «لم يكن هناك كويت وقتها؛ لأنها وُجِدَتْ كدولة في منتصف القرن الثامن عشر»[2]، ويتجلىٰ من خلال العرض التاريخي لدولة السويد المسرود علىٰ لسان (ضاري) تمكُّنه من المعرفة التاريخية بالسويد والكويت، فيما يتجلىٰ جهل فرح بالتاريخ للدولتين، وتتكئ الرواية هنا علىٰ التاريخ الذي تحضر فيه قوة السويد حضاريًّا وثقافيًّا، حضورًا لا تقارن به الكويت؛ نظرًا لحداثة عمرها، إضافة إلىٰ بداوتها.

وحينما تحضر العروبة تاريخيًّا بعلمائها وعلومهم المختلفة؛ فإن حفيدتهم (فرح) تقف في المؤخرة تحمل سِيَر (ابن حيان) و(الأصمعي) كلامًا نظريًّا، بينما العلم الحقيقي أصبح لدىٰ هؤلاء.

وتوظّف الرواية الآثار النفسية والاجتماعية للغزو دون التطرق لأحداثه مباشرة؛ إذ إن فرح لم تعاصره بحكم صغر سنّها، فلم تعش تجربة الاحتلال كاملة، كما أن ضاري لم يعشها بحكم

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٣٥).

(٢) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٤٨).

إقامته في السويد؛ لذلك نجدها تحضر في صورة سريعة من خلال مقارنة (فرح) بين إحساس (ضاري) البعيد عن الكويت في أوج محنتها، وإحساس المواطن الذي عاصر أحداث تلك المرحلة، وجرّب الوقوف متظاهرًا في ساحة العلم، أو دافع عن الوطن أمام مغتصبها الجندي العربي والمسلم، أو نام في السرداب وأصوات المدافع تتعالىٰ؛ فكل هذه الأحداث المروعة حدثت في الكويت في الوقت الذي كان (ضاري) يعيش في السويد ويستمع إلىٰ الأخبار عن بعد.

ويمكن القول: إن توظيف العيسىٰ لهذه المرحلة التاريخية لم يكن بالعمق الذي يتطلبه حضور الوطن؛ ولكنها اتكأت علىٰ أهم أحداث الوطن قربًا من أبطال روايتها؛ برغم أن أيًّا منهم لم يقتحم تلك التجربة أو يروي عنها شيئًا.

وثمة جانب آخر ينتمي إلىٰ الجانب الثقافي والفكري، وهو لهاث (فرح) حول الحرام والحلال، وهو هاجس مرحلة تاريخية أيضًا مرت بها الكويت؛ حيث ينصحها أستاذها بتناول اللحم فتجيبه: «لكنه ليس حلالاً»(١)، كما أنه يكشف عن ثقافة ومرجعية دينية مسيطرة علىٰ المجتمع الكويتي.

وثمة جانب مهم جدًّا في التماهي بين الحضارة والتاريخ والاقتصاد؛ فحضور الكويت التاريخي والحضاري يتجلىٰ من خلال المال، ينكشف ذلك في قول (فرح): «أشير إلىٰ معالم الكويت وسفنها علىٰ سطح الدينار»(٢)، فحضارات الأمم تظهر في شكل آثار فنية منحوتة أو قلائد أو أشكال جمالية، لكنها في الكويت تظهر من خلال المادة المتمثلة في المال والنفط.

٢- البعد الجغرافي:

ويُقصد به الإطار المكاني وتحديداته المميزة له من التضاريس والمناخ والموقع، وتكتسب الشخصيات من خلال تفاعلها مع المكان وألفتها لطبيعته خصائص مميزة تُستمد من

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص١٤).

(٢) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٣٤).

هذه الطبيعة، وإذا كان البعد الزمني يمثل الإدراك النفسي؛ فإن المكان يمتلك القدرة علىٰ تحفيز الإدراك الحسي الذي يحمل الذات علىٰ الصراع مع الواقع(١).

وتدور أحداث الرواية بأبعادها الجغرافية في دولة السويد، وكما يتمثل البعد التاريخي للوطن الكويت من خلال مقارنته بالبعد التاريخي لدولة السويد، فيحدث ذلك أيضًا مع البعد الجغرافي؛ وهو أول ما تصطدم به (فرح): «وكأن أبسالا التي ألامس ثراها لأول مرة ترفض أن تنصاع لأعراف الصيف والشتاء لدي»(٢)؛ إذ تعودت فرح علىٰ شتاء الكويت الطويل القارس، وعلىٰ صيفها الحار الجاف، فتُفَاجأ وهي القادمة من صيف شديد تفصلها عنه ساعات الرحلة بأنها تسير تحت المطر، وهذا يختلف مع الأعراف الجغرافية التي تعودَّها جسدُها.

ويرتبط الإحساس بالمكان بالأطعمة التي يشتهر بها؛ لكن شعور الإقصاء الذي تعانيه (فرح) في السويد يمتد ليشمل الأطعمة التي تتناولها في وطنها الجغرافي؛ إنها تبحث عن طعامها الذي تعودته في الكويت وهو الأرز: «فمضحكٌ مُبْكٍ أن تبحث عن الأرز في بوفيه يوفر كل أطباق العالم إلا الآتية من وطنك»(٣)، ويتحول طلبها لذلك الصنف علىٰ وجه التحديد إلىٰ مثار سخرية أستاذها؛ فيتضاعف شعور الإقصاء والغربة؛ إذ يصبح الشخص الوحيد الذي يشاركها اللغة والانتماء مختلفًا عنها، إضافة إلىٰ تضاعف هذا الشعور في غرفة السكن مع صديقتها الصينية التي تختلف معها في اللغة والمكانة العلمية وجهلها أيضًا ببلدها؛ إذ يصعب علىٰ صديقتها الصينية التعرف علىٰ دولة الكويت، ويصعب علىٰ (فرح) التعريف بتاريخ الكويت وثقافتها فلا تجد شيئًا غير المال؛ حيث تعطيها عملة ورقية كي تبقىٰ تذكارًا ثقافيًّا بينهما.

ويبدأ الدور التبادلي في الإقصاء علىٰ المستوىٰ الجغرافي حين تسمع (فرح) بأسماء بلدان

---

(١) انظر: زمن المحنة في سرد الكتابة الجزائرية دراسة نقدية، فريدة إبراهيم بن موسىٰ (ص١١٢).

(٢) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٩).

(٣) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص١٣).

لم تسمع بوجودها من قبل: «أبدو بينهم كعشبة ضارة»[1]، وفي المقابل يبدو الأثر الديني كامنًا مؤثرًا في استقبالها للمكان: «أستغفر الله ثلاثًا، أنا الممسوسة بحضورك الخطيئة، في المكان الخطيئة»[2]؛ إذ تبقىٰ المرجعية الدينية حاضرة حتىٰ في البعد الجغرافي وبعيدًا عن الوطن.

وتربط (فرح) بين التكوين الشكلي والهيئة الخارجية لضاري والبعد الجغرافي الذي ينتمي إليه؛ فالملامح والسمرة تشي بأنه ابن الصحراء، في حين أن إجابته تعلن إنكاره للانتماء للأمكنة الجغرافية عمومًا.

وتمتلك الأمكنة الجغرافية سطوتها علىٰ أبنائها في الشكل كما ظهر علىٰ شكل (ضاري)، وفي الطباع كما هي طباع فرح قوية بحيث لا تغلب إلا من الكويت ومن يحمل هويتها، فكل التحصينات التي شيّدتها فرح تنهار أمام (ضاري) برغم صمودها القوي أمام غيره ممن التقتهم في هذه الرحلة.

ويمنح المكان بجغرافيته التي اعتادها ساكنوه من الصخب والهدوء والطقس والأرض استقرارًا وسكينة يفتقدونها حين يغادرونه: «يبدو أنني لا أستطيع التوازن خارج الوطن، يتقوّض المكان، تتداخل مفاصله، يبقىٰ الصمت كي أضيع فيه»[3]، ويبدو هذا أيضًا تعليلاً جيدًا للحال التي وصلتها علميًّا.

وتتشكل جغرافية المكان مكونة جزءًا من شخصية أبنائه أو حالة لا يمكن الانعتاق منها؛ إذ ترىٰ (فرح) كل ذلك في (ضاري)، وإن أنكر فهو يفتش عن كل ما يذكّره بالكويت: «في استذكار النخيل أمام كل عمود إنارة في الشارع؟ عبثًا تقنعني بهذا الحزن المبطن سخرية لاذعة بأنك تحب وجودك هنا، عبثًا تجعلني أصدق بأنك لا تموت كل يوم ألف مرة مختنقًا بالهواء النقي في أبسالا؛

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص١٧).

(٢) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٢٠).

(٣) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٣٣).

لأن قيظ الكويت شيء من تكوينك»[1]، لكن الغريب في الأمر أنه يستطيع بتكوينه الصحراوي البدوي أن يتأقلم في العيش مع هذه المدينة التي لا تشبهه.

وامتدادًا لهذا التشكل التكويني والامتزاج بجغرافيا الوطن يمتلك المنتمي لهذه الجغرافيا المكانية القدرة على تمييز كل المكونات التي توجد منه في أيّ بقعة على وجه الأرض: «لو عصبوا عيني تحت المطر سأظل قادرًا على تعرف مطر الكويت من مطر السويد»[2]، وحتى لو طال ابتعاده عن الوطن الأصل أو تنكَّر له؛ فإن امتداده التكويني يجعله قادرًا على تمييزه.

وتبرز سمة الحنين للمكان الجغرافي في شخصية ضاري الذي يجد في (فرح) معادلاً موضوعيًّا للوطن الجغرافي؛ لما تحمله من صفاته وذكرياته هو فيه، وهذا ما يحدث بالتناوب بين (ضاري) و(فرح)، ففي ظل الغياب عن الوطن يرى (ضاري) في (فرح) وطنًا، وترى (فرح) في (ضاري) وطنًا.

٣- البعد الاجتماعي:

تجسّد شخصية (فرح) في تكوينها الاجتماعي وصراعها مع الآخر - (ضاري) وأستاذها والآخر المختلف في المجتمع السويدي- شخصية الوطن (الكويت)؛ فهي إذ تخرج إلى هذا المجتمع الخارجي تتكشف لها مجموعة من الاختلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي تبرز الفارق بين الوطن الكويت في بعده الاجتماعي المحافظ وبين الدول المحيطة به في ظل تفجر العديد من التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية على مستوى الوطن والعالم؛ وحينما تتكشف تلك الاختلافات تتحول إلى خلافات بينها وبين ضاري تحاول من خلال حواراتها الفهم والنقد والتفسير.

تتداخل الأبعاد المكونة للوطن؛ ولكن يبدو أثر البعدين السياسي والاقتصادي في تحديد

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسى (ص٨٠).

(٢) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسى (ص٩٢).

البعد الاجتماعي للوطن؛ ويمكن تلخيص أبرز القضايا الاجتماعية المؤثرة في المجتمع فيما يلي:

١ - استقلالية المرأة وعلاقاتها بالرجل.

٢ - قضية «البدون»:

فيما يخص استقلالية المرأة وقدرتها على تحقيق ذاتها، والحصول على حقوقها ونيل حريتها؛ فإنه يعد أمرًا محددًا ومحكومًا بالأعراف والتقاليد الاجتماعية والدينية التي لم تستطع الكويت التخلص منها مع مرور الزمن؛ ولم تستطع (فرح) الخروج من أسرها حتى وهي تنتقل إلى بلد آخر بعيدًا عن السلطة الاجتماعية؛ وهي إذ تتذكر تلك العادات تنسبها إلى الكويت، وليس إلى أهل الكويت؛ بحيث تصبح السلطة الاجتماعية سلطة وطن، برغم أنها في الحقيقة حواجز وأعراف تنسب إلى الدين قسرًا تحت طائلة السلطة الاجتماعية البحتة، وتحمل (فرح) معها حدود العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة، ليست المتعارف عليها في الكويت فقط، بل في العالم العربي كافة: «شرقية مثلي، كيف تتصرف لو أن رجلاً تجرأ وجلس بجانبها.. إلا بصفعه أو بصفعه؟»[1]، وهذه العلاقة المبنية على الريبة بين المرأة والرجل تمتد إلى تعاملها مع أستاذها أيضًا؛ فالأمر ليس له علاقة بجهلها بالآخر فقط، بل لأن الآخر رجل في جميع الأحوال.

يظل الحاجز الاجتماعي قائمًا بين المرأة والرجل بين (فرح) و(ضاري) خارج الوطن، يقول (ضاري): «طلبوا أن أكون مرشدك، لكنهم لم يخبروني بأنك فتاة! فتجيبه فرح: يمكنك أن تتراجع عن المهمة إذا كان ذلك يزعجك»[2]، هذا الحاجز الذي أعاده إلى الكويت بتقاليدها وهو الذي يعيش إحدى عشرة سنة في السويد ينكسر أمام التجربة المثيرة ويقبل بها؛ ويمارس معها كل المصارحات الشفافة، والتي هي أيضًا محظور اجتماعي آخر في مجتمع يقوم على المجاملات

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسى (ص١٥).

(٢) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسى (ص٢٤).

والتزييف، وليس حضور فرح في هذا الأولمبياد إلا جزء من مجاملة عالمية أخرىٰ.

وتبدو القيود علىٰ المرأة من أبرز العادات الاجتماعية يظهر ذلك في سؤال (ضاري): «لماذا أنت وحدك؟ فتجيب (فرح): كان يفترض أن تحضر زميلة معي، ولكن أهلها رفضوا»[1]، وهذا قيد اجتماعي يرىٰ فيه ضاري ثبات الكويت عند مرحلة منغلقة لم تتجاوزها؛ فهي تعيش حالة منع الاختلاط، واتهام أي رجل وامرأة بينهما علاقة بالفجور دون إدراك لأبعاد تلك العلاقة، وقد يؤدي مجرد الشك أو التطفل علىٰ أنثىٰ إلىٰ منعها من تحقيق حلمها؛ فقد أخفت (فرح) عن أسرتها ملاحقة أستاذها لها، واهتمامه المشبوه بها؛ حتىٰ لا تُمنع من المشاركة في هذا الأولمبياد، ويُفضي هذا السبب الخفي إلىٰ السبب الحقيقي في مشاركة فرح في هذا الأولمبياد، بالرغم من ضعف مستواها؛ فقد كانت مكانتها لدىٰ أستاذها هي السبب.

وتظل علاقة المرأة بالرجل محكومة بالحب أو الزواج، والزواج هو العلاقة المقدسة التي ما تزال تتم في الوطن بالطريقة التقليدية من خلف الأبواب، أما الحب فيظهر في الرواية من خلف حجاب بين (ضاري) و(فرح)، ويصوّر (ضاري) علاقة المرأة بالرجل في إطار الزواج بالنخاسة التي تجري وراء الأبواب، وهو وصفٌ لحال المرأة في الوطن؛ ذلك الحال المعلق بإرادة الأهل، ومن ثم الزوج، والذي أصبحت المرأة تخرج عليه، وتحاول معالجته بالهروب من الوطن[2]، ولإدراك (فرح) مكانة المرأة في مجتمعها والسقف الذي لا يتجاوزه طموحها وإنجازها؛ فإنها تزداد انغلاقًا علىٰ نفسها في هذا الجمع العلمي حين تتصور رؤية الجميع من حولها لها وكأنها عشبة ضارة، ويزداد احتقارها لنفسها، فتقول: «الجميع ربما لا يراني إلا برميل نفط وبلادة»[3]، وهذه الصورة التي تتخيلها عن نفسها لم يواجهها أحد بها، ولكنها بنيت من خيالات (فرح)

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٢٩).

(٢) انظر: ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص١٢٦).

(٣) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص١٧).

المنغلقة علىٰ نفسها اجتماعيًّا حتىٰ في وطنها الكويت؛ لأنها امرأة.

ولأن تلك العادات والتقاليد التي يقدسها الوطن باعتبارها جزءًا دينيًّا ما هي إلا عادات اجتماعية واهنة فإنها تتكشف وتنجلي في السويد في حوارات (فرح) و(ضاري)؛ حين يكشف لها ضاري أولىٰ الفروق بين الكويت والسويد التي تتجلىٰ في كثرة المساجد في الكويت التي ترىٰ في كثرتها قداسة وتعظيمًا وتطهيرًا للأرض؛ لكن (ضاري) يكشف لها أن كل الأرض طاهرة كما في قول النبي ﷺ: «وجُعِلَتْ لي الأرض مسجدًا وطهورًا»؛ مما ينفي القدسية الدينية التي أُسبغت علىٰ الكويت، لكن (فرح) تصر علىٰ تلك المقولات الدينية التي بنت حاجزًا بينها وبين (ضاري).

أما قضية «البدون» فهي قضية معقدة في المجتمع الكويتي؛ فوالد ضاري الذي يُعرَف في كل العالم بالشاعر الكويتي الكبير يعيش في الكويت بدون جنسية، وبدون حقوق؛ لأن هذه الفئة تُحرم من حقها في التعليم والعمل، ويمثل جزء من رفض (ضاري) الارتباط بفرح بعد عودتها للكويت جزءًا من الرفض الاجتماعي الذي لا يقبل ارتباط فتاة مجنَّسة بشاب «بدون»؛ إذ يعد ذلك انتقاصًا لها أولاً وضياعًا لمستقبل الأبناء تاليًا، كما أن ضاري بهذا الرفض يقدم رفضًا ضمنيًا للحالة تعيده إلىٰ وطن لا يعترف به، وسيكشف اعتراف فرح ببداوتها أن القبائل لا تعترف بتلك الفروق بين «البدون» وكافة أبنائها المجنسين باعتبارهم أبناء عمومة لكن هذه التفرقة تتم بين العوائل الأخرىٰ في الكويت والسلطة التي ترفض إعطاء «البدون» كافة حقوق المجنسين.

وتعطي شخصية «البدون» النص بُعدًا حقيقيًّا، إضافة إلىٰ الإشارة الخفية للصراع الطبقي بينهم وبين بقية طوائف المجتمع مما يجعلهم محتقرين مهمشين في وطنهم: «أن تكوني بدون يعني أن تعيشي مهمشة، وأن تكوني منفية بإرادتك يعني أن تعيشي علىٰ الهامش»[1]، وتعد هجرة

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص١٢٦).

ضاري للوطن وحصوله على الجنسية السويدية فعلاً مقاومًا للأوضاع الاجتماعية المزرية التي كان يعاني منها، وتغييرًا للواقع الذي يعيشه في ظل انعدام الحقوق الوطنية، لكنه برغم هذه الجنسية الجديدة لم يستطع الخلاص من الروح الكويتية التي تشعّ من كل ذرة في جسده ولغته وملامحه.

ويكشف تشابه (فرح) مع (ضاري) في الانتماء للطبقة البدوية في الكويت؛ أنها من فئة متشددة اجتماعيًّا تتخذ من الدين ذرائع للدفاع عن أعراف اجتماعية وقبلية بالية؛ وليس أدل على وهن تلك الأعراف من أنها تفقد سلطتها إذا غادر أصحابها سلطة الرقابة؛ وذلك الذي حدث مع (فرح) التي تقبلت أن تشارك (ضاري) في رحلة خاصة بعيدًا عن مجموعات الطلاب؛ غير أن هذه البداوة التي كانت (فرح) تظن أنها تتحلى بها تنكشف من خلال رؤيتها للعالم المتحضر الذي يعيشه (ضاري) ومع ذلك فكل أطباعه تحمل صفات الرجل البدوي الأصيل: «لا أصدق أن هذا منزل بدوي، لا شيء فيه يشي بذلك اللهم إلا الدشداشة المعلقة على المشجب أراها منعكسة على المرآة من غرفتك وزجاجتي دهن العود»[1]، لكن قبولها للدعوة إلى منزله يجعلهما يمتزجان ليظهر البدوي في داخله: «العادات البدوية تسكننا بإلحاح، نشمر عن أكمامنا ونتسابق في التهام الطعام»[2]، ويبدو أيضًا أن للأطعمة دورًا كبيرًا في بناء العادات والتقاليد؛ فهي ترفض وهي في أوج جوعها تقبل الوجبات المريبة التي تراها خوفًا من اختلاطها بالمحرم: «ولائم البدو الزاخرة تصطخب في رأسي، أنا الإخلاص المستميت للعادة بكل أشكالها حتى لو تلخصت في طبق أرز وهزة فنجان»[3].

وتمثل الأعراف الاجتماعية أمانًا وحصنًا لمن تعودها؛ وهي سلسلة مترابطة يستدعي

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسى (ص١١٨).

(٢) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسى (ص١٢٢).

(٣) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسى (ص١٦).

بعضها بعضًا؛ فيكفي أن يمنح (ضاري) فنجان قهوة عربية كويتية لـ(فرح) حتىٰ تشعر بالأمان وتستدعي مع رائحتها ذكرياتها في الكويت.

٤- البعد السياسي:

تُعدّ السياسة محورًا بارزًا في معظم الأعمال الأدبية المعاصرة من الشعر والمسرح والرواية؛ وذلك لأن الإنسان العربي أصبح يدرك أن تطور المجتمع لا يتم إلا من خلال تطور الممارسات السياسية والتخلص من الحرمان وتحقيق الأمان(١).

ويمكن للروائي أن يُوجِد عاملاً عربيًا مشتركًا بين قرائه من خلال معالجته القضايا السياسية، التي هي غالبًا لا تخص دولة بشكل مستقل؛ فالقضايا الكبرىٰ تؤثر علىٰ جميع السياسات العربية، والسياسات الداخلية في الغالب تتشابه بتشابه طبقات الشعب وفئاته وهمومه.

ويمكن إيجاز أبرز القضايا السياسية التي تناولتها الرواية، وكشفت عنها شخصية فرح، في الآتي:

١- الغزو العراقي وأبعاده السياسية.

٢- الهوية العربية.

٣- العنصرية.

وسنبسط الحديث عنها فيما يلي:

١- الغزو العراقي وأبعاده السياسية: وتعد قضية الغزو العراقي للكويت القضية العربية الثانية بعد القضية الفلسطينية، والتي جمعت العرب وقسمتهم حولها بين مؤيد ومعارض، ولكل منهم مبرّراته وأهدافه ومصالحه التي بنىٰ عليها موقفه.

ويظهر حدث الغزو كما أسلفنا في البدء في التاريخ الذي تزامن مع مشاركة فرح في الأولمبياد، وهو نفس الشهر الذي حدث فيه الغزو؛ وليس من قبيل الصدفة أن يقام هذا

(١) انظر: الرواية السياسية، طه وادي (ص٩٦).

الأولمبياد خارج أرض الوطن إشارة إلىٰ الهروب الذي مارسه بعض المواطنين، باسم دعم المقاومة في الداخل ودعم القضية في الخارج.

ويظهر في المرة الثانية حينما حددت (فرح) معرفة (ضاري) بالكويت بتلك الأزمة التي حدثت وهو في السويد يحصل علىٰ الجنسية السويدية، فلم يشارك في الوقوف في ساحة العلم، أو الاختباء في السراديب، وفي الموقف الأصعب الذي مر به الكويتيون في مقاومة الاعتداء وحمل السلاح في مواجهة الأخ العربي المسلم[1]، وثمة مفارقة تحدث في هذه الرواية؛ إذ إن الصديق الذي منح (ضاري) فرصة الالتقاء بـ(فرح) صديق عراقي؛ مما يعني أن العراقي والكويتي حينما يغادران وطنيهما يصبحان إخوة، بل إن هذا التسامح يتجلىٰ من خلال سماح السفارة الكويتية للشقيق العراقي بالعمل فيها.

ويلاحظ أن ورود الحديث عن الغزو يظهر في شكل إشارات رمزية غير مباشر؛ وهي تبرر في ورودها للحالة التي وصلت لها الكويت اجتماعيًّا وعلميًّا وسياسيًّا؛ إذ تسبب الغزو في تلك الإشكالات التي حدثت علىٰ تلك المستويات.

٢- الهوية العربية والانتماء الوطني: لفظ الهوية مشتق من الهو، وهوية الشيء هي عينيته وتشخصه وخصوصيته التي ندركها بالجواب عن السؤال «ما هو»؟. وتطلق الهوية علىٰ معانٍ مختلفة؛ منها: الهوية العددية، والهوية الشخصية، والهوية الكيفية، والهوية المنطقية، ومبدأ الهوية أنه لا فرق بين الشيء وذاته، والمقصود بفلسفة الهوية كل نظرية لا تفرّق بين المادة والروح، ولا بين الذات والموضوع، وتنظر إليهما علىٰ أنهما وحدة لا تنفصل[2].

وتعرف الهوية أيضًا بأنها: مجموع المحددات السلوكية والأفكار التي ترتبط بالجنس

(١) انظر: ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٥٧).

(٢) معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، جلال الدين سعيد (ص٤٩٤، ٤٩٥).

والأصل والدين بوصفها الأصول التي تؤثر في الوعي الثقافي والاجتماعي؛ حيث تمثل تلك المحددات أطراف القوة التي يسعىٰ السياسي والاقتصادي إلىٰ فرض القوة من خلال هيمنة هوية الأقوىٰ[1]. تتنوع تعريفات الهوية؛ وهي بناء علىٰ التعريف السابق يمكن أن تكون محددًا اجتماعيًّا كما يصدق عليها القول بأنها مكون ثقافي؛ لكنها في جميع أحوالها خاضعة للسلطة السياسية التي تبرز ثقافة الأقوىٰ، وتجعلها السائدة المعروفة، ويمثل الانتماء لها القوة المنشودة.

وتمثل الهوية في هذه الرواية المرجعية الثقافية الدالة علىٰ الذات العربية، مع ملاحظة تداخل مفهومي الهوية العربية والانتماء الوطني في الرواية تداخلاً متضاربًا؛ فهي إذ تفخر بانتمائها الوطني إلا أنها تشعر بهويتها العربية الناقصة أمام الغرب المقدم؛ هكذا تتعاطىٰ مع الهوية باعتبارها مرجعية ثقافية، ومع الانتماء باعتباره مرجعية سياسية يسعىٰ من خلالها السياسي إلىٰ مجتمع ناضج يحقّق غاياته ومصالح أعضائه بما يوحد الجسم الاجتماعي[2]، فتظل قضية الانتماء حدًّا تواجه به فرح ضاري وتنتقصه من خلالها، فيما تظل الهوية العربية عقدة النقص التي تواجهها وتشعر بها تنتقص من كرامتها.

ويمثل وصول (فرح) إلىٰ السويد صدمة الهوية الأولىٰ التي خلقت في داخلها عددًا من الأسئلة عن هويتها وذاتها وشخصيتها، وعن الهوية العربية والوطن والانتماء، إضافة إلىٰ دهشتها من البيئة المحيطة بها، ومقارنتها منذ البدء بين البيئة الصحراوية التي جاءت منها والبيئة المليئة بالطبيعة والبرودة والمطر من حولها وهو مالم تَعْتَده في الكويت.

تتكون عدد من المفارقات التي سينتج عنها صراع الهوية: «بدت مفارقة ساخرة، أن تكون الوحيد الذي يتحدث لغتي، وآخر شخص أتحسس معه جغرافيا مشتركة، هذا الوطن الذي أتينا

(١) انظر: الأبعاد الثقافية في رواية نجمة لكاتب ياسين، هدىٰ بدري (ص٧٧).

(٢) الهوية ورهاناتها، فتحي التريكي، ترجمة: نور الدين السافي وزهير المدنيني (ص٤٣).

منه بفارق إحدىٰ عشرة سنة يبدو آتيًا من العدم»[1]، وتكمن المفارقة الأخرىٰ في أنها بدأت تتعرف علىٰ الوطن من خلال ضاري البعيد عن الوطن منذ إحدىٰ عشرة سنة، وهي القادمة منها للتوّ تجهلها تمامًا[2].

وثمة حاجز يبنىٰ بين (فرح) و(ضاري) يخلق صراع الهوية في مفارقة أخرىٰ وهو حاجز اللغة يبدأ حين نطق Dhary ضاري اسم (فرح)، وتنطق هي اسمه حين يشير إلىٰ البطاقة المعلقة علىٰ صدره: «أقرؤها باسمك المكتوب بحروف أجنبية أقرؤها: داري! باسمًا.. تهز أكتافك بلا اكتراث: ناديني داري إن أعجبك الاسم»[3]، وتظهر المفارقة في أن كلاهما عربي، ومع ذلك تعمّد كل واحد منهما قراءة اسم الآخر باللغة الإنجليزية مع أنها يحملان نفس الهوية التي تمكّنها من نطق الاسم بطريقته الصحيحة في لغته الأصلية العربية، ومع ذلك تجاهلا النطق العربي الذي يعيدهما إلىٰ أصل واحد، واستخدما اللغة الأخرىٰ، مما يولّد صراع الهوية بين من يعيش في بيئة عربية وبين من تغرب عنها، وتولّد مفارقة أخرىٰ مع اللغة حين يقابل هذا الإصرار من (فرح) علىٰ نطق اسمها بالشكل الصحيح مع (ضاري)، وهذا التجاوز منه في نطق اسمه علىٰ الوجه الذي يرضيها، مع المواجهة في التعرفة الاسمية بين (فرح) وزميلتها الصينية في الغرفة: «ما زلت أتساءل كيف سأناديها، وكيف ستستطيع مناداتي، مادامت كلتانا عاجزة عن نطق اسم الأخرىٰ بشكل يرضي نرجسيتها.. ولكنني كنت قد بدأت أردد مثلك أسخف ما نحمله يا سيدي الأسماء، فهززت رأسي ضاحكة: يس فارا»[4].

وتخلق عقدة النقص التي تعانيها من هويتها العربية مبررًا لعدم فوزها برغم أنها تخلفت عن

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٤٢).

(٢) انظر: ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٤٩).

(٣) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٢٢).

(٤) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٣٢).

الاختبار ولم تدخل أغلب مراحله؛ فتعزو سبب عدم فوزها لأنها عربية، فالعنصرية التي ترىٰ أن العالم يتعامل بها معها تجدها السبب خلف عدم فوزها؛ والحقيقة التي تذكرها لها زميلتها الصينية، وكذلك (ضاري)؛ أن السبب الحقيقي هو عدم استعدادها لهذه المسابقة كما ينبغي، وكما فعل جميع الطلبة، وهي هنا تقف بين هويتين تتسببان في الصراعات التي تعيشها هويتها الكويتية في مواجهة (ضاري) «البدون»، وهويتها العربية في مواجهة وفود كل هذا العالم المتقدم، وهي المتخلّفة الوحيدة بينهم؛ «لقد رشحوني لأحمل وزر تخلُّف أمة كاملة»[1]، ويزداد المنظر ألمًا حين رأت ضاري يرقص مع هذه الوفود بدوي بين الأعاجم يرقص مذبوحًا من الألم.

تكرّس اللغة التي هي جزء أصيل من الهوية هزيمة (فرح)؛ يتجلىٰ ذلك عند حصولها علىٰ المركز الأخير في المسابقة، وسمعت اسمها: «فارا ناسر»؛ إنها المفارقة بين الفأر الجبان والنسر الشجاع؛ لقد حاولت حتىٰ في هذه الوصول إلىٰ المسرح كي تحصل علىٰ شهادة المركز الأخير، لكنها فقدت توازنها[2]، فينقذها (ضاري) حين يقفز ويتسلم شهادتها، وفي الحقيقة كان يريد استلام وثيقة واحدة باسم الكويت ليثبت بها جنسيته ووطنيته لهذا البلد الذي أنكره وحرمه من وجوده علىٰ ترابه.

تواجه (فرح) من خلال الانتماء والهوية الآخر المختلف عنها؛ سواء كان هذا الآخر هو الآخر الغربي أو الآخر المواطن الشبيه بها، فهذا الغربي يحاول بأفكاره وتقدمه ونجاحاته أن يطمس الهوية العربية والإسلامية بحدودها المحرمة في داخلها، فيما يحاول هذا الآخر المواطن الشبيه بها طمس معالم الانتماء الوطني المقدس؛ وهي إذ تواجه هذه القوة تواجهها بعواطفها؛ فيما يحاول الآخر هدم ثوابت (فرح) بالعقل، إضافة إلىٰ اشتغال عامل الغربة الاختيارية لفرح والإجبارية لضاري في التحكم بأفكار كلّ منهما، لقد كانت (فرح) تسعىٰ إلىٰ مقاومة ثقافة المركز

(١) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص١٢٨).

(٢) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص١٤٩).

بالثقافة المحلية، وفشلت في ذلك، ومن خلال هذا الفشل بدأت مرحلة الوعي بالذات التي كان فقدان الثقة في الثقافة المحلية أول نتائجها.

٣- العنصرية: وتعرف العنصرية بأنها: نوع من الاستعلاء النابع من شعور فئة بأنها عنصر (السيد)، ثم ترجمة هذا الشعور إلىٰ واقع سياسي واجتماعي واقتصادي(١).

وتظهر علىٰ مستويين: أولاهما: عنصرية داخلية في تعامل الدولة مع «البدون»، وثانيهما: عنصرية دولية في تعاطي الغرب مع كل عربي والعكس.

ويحضر المستويان بشكل متداخل؛ فعلىٰ المستوىٰ الأول يظهر في هذا السؤال الذي طرحته (فرح) علىٰ (ضاري) «ما الذي تريده»، ثم يجيبها عن الامتيازات التي تتحقق له هنا صحيًّا وتعليميًّا وعمليًّا، ثم تتساءل هي كيف له أن يكون: «بليدًا لدرجة إجراء مفاضلة ساذجة بين وطن ومنفىٰ؟»(٢).

وتعد قضية «البدون» قضية معروفة في منطقة الخليج، لكنها الأشهر في الكويت؛ وفيها إجحاف لحقوق الكثيرين منهم ممن أعطىٰ الوطن من علمه وولائه، وحياته؛ خاصة أولئك الذين دافعوا عنها إزاء الغزو، وتظهر المفارقة العجيبة أن يعرف الشعراء والأدباء خارج أوطانهم بنسبتهم إلىٰ الكويت؛ إلا أنهم في الكويت بلا جنسية، وامتدادًا للعنصرية التي تتعرض لها هذه الفئة المهمَّشة لا يستطيع أبناؤها إكمال تعليمهم بعد الثانوية، إضافة إلىٰ عدم قدرتهم علىٰ تسجيل زواجاتهم بشكل رسمي أو طلاقهم أيضًا؛ إذ يُعدّ «البدون» مقيمين بصفة غير رسمية في أوطانهم، وهذا يكشف عن العنصرية التي ترفض التعاطي مع التنوع العرقي في الوطن الواحد، بالرغم من أن «البدون» هم في الأصل من أبناء العشائر القبلية المرتبطة بعلاقات نسب بأبناء العمومة بين السعودية والكويت.

---

(١) التفرقة العنصرية، السيد محمد عاشور، القاهرة، ١٩٨٦م (ص٣).

(٢) ارتطامٌ لم يُسْمَع له دَوِيٌّ، بثينة العيسىٰ (ص٥٦).

وتظهر العنصرية في مستواها الثاني؛ حين تشعر (فرح) بالنقص؛ كونها العربية الوحيدة التي تشارك في الأولمبياد، وهي مشاركة شكلية فقط؛ فقد تمت محاباتها من أستاذها نتيجة لميوله إليها، فيما يتم محاباة وطنها في المشاركة أيضًا؛ لأنها تمثل النفط في هذا المكان؛ فكل شيء عربي يمثل صفة ناقصة اللغة والانتماء، أما العرب الذين ينتسبون إلىٰ الغرب؛ فإن ميزة انتسابهم إلىٰ الغرب ستمنحهم قوة لم يكتسبها سواهم، كما حدث مع (أحمد زويل)، وتتماهىٰ قضية العنصرية مع قضية الهوية والانتماء العربي.

***

الخاتمة

بعد هذا التطواف الذي يمكن وصفه بالاستقرائي في جوانب الشخصية الروائية (فرح)، ومحاولة مقاربتها بأبعاد الشخصية الوطن، وتحليل مناطق التوازي والتقاطع بينهما؛ يمكن صوغ بعض النتائج فيما يأتي:

١- عالج البحث مفاهيم الشخصية اللغوية والاصطلاحية والنقدية، ورجَّح أن المعنىٰ اللغوي لمفردة الشخصية يقارب المعنىٰ السيميائي الذي يتعامل من خلاله النماذج في تعاطيهم مع الشخصيات الروائية وتمييزها وتمايزها فيما بينها، وانتهىٰ إلىٰ أن الإشكالية في التعاطي مع الشخصيات الروائية نقديًّا يأتي من تعدّد المدارس والنظريات النقدية الحديثة.

٢- تناول البحث طرق تقديم الشخصية للقارئ، والأبعاد المكونة لها، ومدىٰ تناسب كل بُعْد مع ما تقدّمه رمزية الشخصية، وانتهىٰ إلىٰ أن البُعد الجسدي يختفي تمامًا إلا ما ظهر في شكل إلماحات بينما يتجلىٰ وبوضوح الأبعاد النفسية والثقافية والاجتماعية، وهي الأبعاد التي تؤدي دلالات موجهة في النص الروائي، ومع ذلك لم تظهر بشكل مسرف مقارنة بالبعد الجسدي الشحيح.

٣- كشف البحث عن دور الحوار بوصفه إحدىٰ التقنيات السردية عن الجوانب النفسية والصراعات التي تدور في أعماق الشخصيات، كما كان للحوار الداخلي مع الذات دوره البارز في الكشف عن مجموعة من المُسَلَّمات والقيم الوطنية التي تهاوىٰ بعضها، وحافظ البعض الآخر علىٰ ثباته بعد المواجهة التي تمت بين (فرح) و(ضاري).

٤- توقف البحث عند بعض التحليلات في شخصية (فرح)، والتي تُعدّ مقدمات في تحليل شخصية الوطن، ورصد عناصر التماثل والاختلاف بين الوطن و(فرح)، وفرّق بين قدرة الشخصيتين (فرح) و(ضاري) في إعطاء رؤية نقدية تجاه الوطن والانتماء.

٥- قارب البحث بين شخصية المرأة ورمزيتها للوطن، وكشف أن فكرة الأبعاد المجسدة للشخصية الروائية تقابلها تكوينات في الوطن، وهي التكوينات التاريخية والاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، وهي تقابل الأبعاد المكونة للشخصية؛ وهي الأبعاد الجسدية والثقافية والنفسية والاجتماعية.

٦- كشف البحث في هذه الرواية وروايات أخرىٰ لـ(بثينة العيسىٰ) الحاجة إلىٰ توسيع قراءة الدلالات التي تكتنز بها روايات العيسىٰ، واستقصاء صورة الوطن في مقاربات تحليلية أوسع قد تُشكّل كامل إنتاجها الروائي؛ لأنه يمثل عنصرًا حاضرًا في كل روايتها.

٧- شكل البعد الاجتماعي جزءًا واضحًا من شخصية (فرح) التي تعكس سلوكياتها تقاليد وقيود المجتمع الخليجي، وتناقضاته، معبرة في بعض سلوكياتها عن المسكوت عنه خاصة في علاقة المرأة بالرجل، والقيود التي يفرضها المجتمع علىٰ المرأة بشكل عام، مما يؤثر علىٰ تكوينها العلمي والثقافي.

٨- تصدت الرواية للصراع بين الدين والمجتمع وبالغت في تقديس بعض الأطروحات باسم الدين؛ في حين أنها قضايا اجتماعية بحتة خلقها المجتمع المتزمت والمنغلق علىٰ نفسه.

٩- تعد هذه الرواية - وإن كانت الرواية الأولىٰ - لـ(بثينة العيسىٰ) من أبرز رواياتها التي عالجت قضية الوطن لدىٰ البدون، وحاولت اختراق المسكوت عنه من حقوقهم بكل جرأة والكشف عن أدوارهم المختلفة في تكوين المجتمع الكويتي خاصة والخليجي عامة، متحررة من الأطر الاجتماعية والسياسية محاولة إعادة تشكيل النظرة الإيجابية لهذه الطبقة المهمشة من المجتمع.

١٠- ولأنها الرواية الأولىٰ للعيسىٰ فقد أخفقت في توظيف التقنيات السردية وافتقرت كثيرًا إلىٰ الفنيات المتعددة التي تحقق الدهشة الفنية لدىٰ المتلقي.

١١- بالرغم من أن الرواية توقفت عند حادثة غزو الكويت، إلا أن المرور بها لم يكن

بالعمق الذي أحدثه الغزو في دائرة العمق السياسي والتاريخي سواء للكويت أو للدول العربية وعلاقاتها المشتركة ومستقبلها ومسيرتها التنموية، ويعزى هذا الاختصار في التناول إلى أن الإيراد جاء في الأصل بوصفه محكًا للوطنية ومعيارًا لها، وليس بوصفه حدثًا محرضًا في الرواية.

وتميل الدراسة في ختامها إلى تسجيل التوصيات الآتية:

١ - العناية بدراسة تطور الوعي الفني لدى بثينة العيسى بتقنيات الرواية، ودراسة العتبات النصية، وتخصيص دراسات بعينها تتبنى الرمزيات التي تحملها أسماء الأعلام في أعمالها الروائية.

٢ - الاهتمام بعنصري الزمان والمكان في روايا العيسى ودورها في بناء الحدث والشخصية؛ لا سيما وأن رواياتها تدور في غالبها في أكثر من دائرة جغرافية.

٣- رصد المرجعيات الثقافية التي ساهمت في تكوين البناء الروائي، وآليات توظيفها ومدى نجاحها في تجسيدها من خلال عناصر أعمالها المتعددة.

٤ - التركيز على الوطن وأبعادها المختلفة في أعمالها الأخرى لاكتشاف تطور الفكرة ورصد جوانب أخرى لم تظهر في هذا العمل.

* * *

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

*** المصادر:**

- ارتطام لم يسمع له دوي. العيسىٰ، بثينة. ط١، الكويت: مكتبة آفاق للنشر، ٢٠١٢م.

*** المراجع:**

- أبحاث في النص الروائي العربي. سويدان،سامي. د.ط، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٦م.
- الأبعاد الثقافية في رواية نجمة لكاتب ياسين. بدري،هدىٰ، الجزائر: جامعة بانتة، رسالة ماجستير، ٢٠١٥-٢٠١٦م.
- بنية الشخصية في أعمال مؤنس الرزاز الروائية - دراسة في ضوء المناهج الحديثة. المحاسنة، شرحبيل إبراهيم المحاسنة. الأردن: جامعة مؤتة، رسالة دكتوراه، ٢٠٠٧م.
- تاج العروس من جواهر القاموس. الزبيدي، محمد بن محمد. تحقيق: حسين ناصر. د.ط، الكويت: مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٩م.
- التفرقة العنصرية. عاشور، السيد محمد. د.ط، القاهرة، ١٩٨٦م.
- دلالات العلاقة الروائية. دراج، فيصل. د.ط، قبرص: مؤسسة عيبال، ١٩٩٢م.
- الرواية السياسية. وادي، طه. ط١، القاهرة: دار النشر للجامعات المصرية، ١٩٩٦م.
- زمن المحنة في سرد الكتابة الجزائرية دراسة نقدية. ط١، بن موسىٰ، فريدة إبراهيم. ط١، عمان: دار صداء للنشر، ٢٠١٢م.
- سيميولوجيا الشخصيات الروائية. هامون، فيليب. ترجمة: سعيد بن كراد. د.ط، الجزائر: دار كرم الله، د.ت.
- سيميولوجية الشخصيات السردية (رواية الشراع والعاصفة لحنا مينة نموذجًا). بنكراد، سعيد. د.ط،عمان: دار مجدلاوي، ٢٠٠٣م.

- لسان العرب، بن منظور،جمال الدين محمد. د.ط، بيروت: دار صادر، ١٩٩٤م.
- قاموس السرديات. برنس، جيرالد. ترجمة: السيد إمام.د.ط، القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ٢٠٠٣م.
- مدخل إلىٰ تحليل النص الأدبي. أبو شريفة، عبدالقادر. د.ط، عمّان: دار الفكر، ٢٠٠٠م.
- معجم السرديات. القاضي، محمد. د.ط، بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠١٠م.
- معجم المصطلحات الأدبية. فتحي، إبراهيم، د.ط، صفاقس: التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، ١٩٨٦م.
- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة. علوش، سعيد. ط١، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٥م.
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب. وهبه، مجدي،و كمال المهندس. ط٢، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤م.
- معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية. سعيد، جلال الدين. ط١، تونس: دار الجنوب، ٢٠٠٤م.
- منابع الشعرية عن الشاعر إبراهيم عباس ياسين. مجموعة باختين. د.ط، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٨م.
- النقد الأدبي الحديث. هلال، محمد غنيمي. د.ط، القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠١م.
- الهامش والصدىٰ – قراءة في تجربة محمد مفلاح الروائية- بن جلولي، عبدالحفيظ. د.ط، الجزائر: دار المعرفة، ٢٠٠٨م.
- الهوية ورهاناتها. التريكي، فتحي. ترجمة: نور الدين السافي وزهير المدنيني.ط١، بيروت: الدار المتوسطة للنشر، ٢٠١٠م.

***

Bibliography

- The Holy Quran

*** Sources:**

- An unheard-of impact. Al-Issa, Buthaina. 1st edition, Kuwait: Afaq Publishing Library, 2012.

*** The reviewer:**

- Research in the Arabic novel text. Swaidan, Sami. D. T., Beirut: Arab Research Foundation, 1986.
- Cultural dimensions in the novel Najma by writer Yassin. Badri, Hoda, Algeria: University of Banta, Master's thesis, 2015-2016 AD.
- The structure of the character in Mu'nis al-Razzaz's novel works - a study in light of modern approaches. Al-Mahasneh, Sharhabeel Ibrahim Al-Mahasneh. Jordan: Mutah University, PhD thesis, 2007.
- The bride's crown is one of the jewels of the dictionary. Al-Zubaidi, Muhammad bin Muhammad. Investigation: Hussein Nasser. D. T., Kuwait: Kuwait Government Press, 1969 AD.
- Racial discrimination. Ashour, Mr. Muhammad. D. T., Cairo, 1986 AD.
- The implications of the narrative relationship. Darraj, Faisal. D. I., Cyprus: Ebal Foundation, 1992.
- The political novel. Wadi, Taha. 1st edition, Cairo: Egyptian Universities Publishing House, 1996.
- The time of adversity in the narrative of Algerian writing, a critical study. 1st edition, Bin Musa, Farida Ibrahim. 1st edition, Amman: Sadda Publishing House, 2012 AD.
- Semiology of fictional characters. Hamon, Philip. Translated by: Saeed bin Karad. D. T., Algeria: Dar Karamallah, D. T.
- The semiology of narrative characters (the novel The Sail and the Storm by Hanna Mina as an example). Benkrad, Said. D. T., Amman: Majdalawi Publishing House, 2003 AD.
- Lisan al-Arab, Ibn Manzur, Jamal al-Din Muhammad. D. T., Beirut: Dar Sader, 1994 AD.
- Dictionary of Narratives. Prince, Gerald. Translated by: Al-Sayyid Imam, D. T., Cairo: Merit Publishing and Information, 2003 AD.
- Introduction to literary text analysis. Abu Sharifa, Abdul Qader. D. T., Amman: Dar Al-Fikr, 2000 AD.
- Dictionary of Narratives. Judge, Muhammad. Dr. I, Beirut: Arab Diffusion Foundation, 2010.
- Dictionary of literary terms. Fathi, Ibrahim, D. I., Sfax: Labor Mutual Fund for Printing and Publishing, 1986 AD.
- Dictionary of contemporary literary terms. Alloush, Saeed. 1st edition, Beirut: Lebanese Book House, 1985 AD.

- Dictionary of Arabic terms in language and literature. Wahba, Magdy, and Kamal Al-Muhandis. 2nd ed., Beirut: Lebanon Library, 1984 AD.
- Dictionary of philosophical terms and evidence. Saeed, Jalaluddin. 1st edition, Tunisia: Dar Al-Janoub. 2004 AD.
- Sources of poetry based on the poet Ibrahim Abbas Yassin. Bakhtin collection. D. T., Damascus: Arab Writers Union, 2008 AD.
- Modern literary criticism. Hilal, Muhammad Ghoneimi. D. T., Cairo: Nahdet Misr, 2001 AD.
- Margin and Echo - A Reading of Muhammad Muflah's Novelist Experience - Ben Jalouli, Abdel Hafeez. D. T., Algeria: Dar Al-Ma'rifa, 2008 AD.
- Identity and its stakes. Triki, Fathi. Translated by: Nour al-Din al-Safi and Zuhair al-Madani, 1st edition, Beirut: Dar al-Mawsatiya for Publishing, 2010 AD.

❊ ❊ ❊